محمد يعقوبي

فرخ الجيوب والتحليق العالي

رواية

دار البسمة
للنشر الالكتروني

فرخ الجيوب والتحليق العالي

اسم الكتاب: فرخ الجيوب والتحليق العالي

اسم الكاتب: محمد يعقوبي

نوع العمل: رواية

الرقم الدولي EBIN: 16-1-415-251219

الناشر: دار بسمة للنشر الإلكتروني

الطبعة الأولى: 2025م / 1447هـ

دار بسمة للنشر الإلكتروني

00212771814934

داربسمة للنشر الإلكتروني (المغرب)

Darbassma1@gmail.com

المملكة المغربية

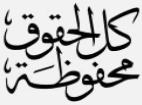

دار بسمة للنشر الإلكتروني تُقدم جميع خدمات النشر، ولا تتحمّل أي مسؤولية تجاه المحتوى، إذ إن الكاتب وحده هو المسؤول عن نتاج فكره.. كما لا يجوز بأيّ صورة نشر أو إعادة طبع أي جزء من هَذَا الكتاب أو اختزان مادته بطريقة الاسترجاع، أو نقله عَلَى أي نحو كَانَ، أو بأيّ طريقة سواء كَانَت إلكترونية أو بالتصوير أو خلاف ذلك، إلاّ بموافقة خطية من الناشر أو المؤلف. ©

فرخ الجيوب والتحليق العالي

رواية

محمد يعقوبي

دار البسمة للنشر الإلكتروني

بسم الله الرحمن الرحيم

الإهداء

إلى كل تائه..

اتبع هذا الخيط...

فرخ بين الجيوب

لما كنت سارقًا، كان أجمل متعة لي إعجابي بنفسي في سرعة خفة يدي، وقدراتي البالغة في التمويه ومراوغة الزبون، كي ألفت نظره إلى شيء ما، وألهيه عن أناملي وهي تخترق جيوبه، وتنزلق بين الأزرار، وتنسحب في سرعة البرق ولا ترجع إلا والأوراق المالية أو المحفظة كلها بين يدي، وربما يحس الزبون بشيء غير عادي، فأقابله بابتسام المنتصر، ويسبق إليه حسن الظن بي، فيرد تحيتي بابتسامة وكأنه يرفع قبعته مندهشًا لتلك الخفة والمهارة.

كنت أنظر أحيانًا في وجه الزبون وهو لم يدرِ أنه قد انسلَّ عفريت إلى مدخراته ونفخ فيها فتبخرت! وهذا كان يشعرني بالاعتزاز بمهنتي كسارق محترف، كنت أتصور هول الصدمة عليه بعد لحظة الإدراك وأضحك ضحكة الفائز في التحدي، واختفي من ذلك المحيط نهائيًا .

لم أُضبط متلبسًا في حياتي إلا مرة واحدة، في بدايات احترافي وقلة خبرتي وأنا إذ ذاك في الثانية عشرة من عمري، لم يكن ذلك اليوم سهلًا ولا حلوًا، بل قضيته مثل الذي يقضيه الديك يوم تُغسل رجلاه؛ ضُربت ضربًا لم يُضربه حمار هارب من إصطبل، وأصدقكم القول: لم يكن ذلك العقاب الشديد الذي تعرضت له

رادعًا لي، بل زادني إصرارًا وتمسكًا بطريقتي التي سلكتها، خصوصًا وأن الذي ضربني لم يكن هو صاحب المال، ولم يكن المال الذي سرقت حينها شيئًا كبيرًا، لكن كان كافيًا أن أسد به جوعي ذلك اليوم، كان يضربني بشدة، وعنف، وقسوة، لكمًا، ولطمًا، وركلًا؛ لم يرعَ حرمة لوجه، ولا لرأس، ولا لبطن، ولا وقع في باله كوني طفلًا في مقتبل العمر، وأحسست حينها أنه لم يكن يبالي لو مت في يده، خصوصًا وقد أغمي علي من الضرب وسقطت، فأقامني بصفعة على وجهي كدت أُصرع منها وطاش عقلي، صفعة خرقت أو كادت تخرق طبلة أذني، وظننت أني فقدت السمع إلى الأبد لما تردد من دوي فيها وطنين.

وما ملأني حقدًا وغيظًا أن صاحب المال عفا، وطلب منه -بل ترجاه- أن يتركني، ومل الناس وشبعوا من ضربي إلا هو، بقي محكمًا قبضته على رقبتي الصغيرة بيده الغليظة تلك، ويستمتع بضربي، ربما كان يحسب أنه بذلك يربيني ويردعني عن السرقة، لكن لم أشك مطلقًا أن ذلك كان هدفه! إنما كان يتشفَّى من غيظ في نفسه، ويفرغ حنقه على طفل يتيم بلا أب ولا أم، ولا من ينتصر لي أو يدفع عني غير عجوز كانت ترعاني .

لم أنسَه أبدًا، ولن أنساه، وقد أعددت له نقمة تجعله يعض أنامل الندم والحسرة، وأقسمت يمينًا مغلظة على دم بارد، بعد أن

تعافت كدماتي واندملت جروحي، إلا جرحًا واحدًا في نفسي لم تسعفه الضمادات ولم تكفه الكمادات، اضطررت بسببه إلى ترك عش لي عزيز علي كان يمثل لي أسرتي، ورفقة حميمة، وعجوزًا كنت اعتبرها أُمًّا رؤومًا هي التي ربتني منذ أن عقلت والتي قامت بتمريضي لأيام وليالي كابن بطنها، بعد أن رماني الكلب عظمة مكسرة مهشمة؛ قلت أقسمت ألا أترك عنده ثأري مهما طال بي الزمن.

من يومها لم أشعر بندم قطُّ على سرقة مال قليل أو كثير، من غني أو فقير. صنعت مبدئي الخاص في الحياة وعملت به:

الحلال هو ما حل في يدي .

الفرخ المهاجر

تركت مدينتي تازة على كره وانتقلت إلى مدينة بركان عاصمة الليمون وبلد الفلاحة والأغنياء كما كنت أسمع عنها، مدينة لا يعرفني فيها أحد، أهلها أهل كرم وطيبة، تستقبل كل غريب، وتكرم كل وافد، لذلك لم أستغرب أن أجد فيها الكثير من الغرباء، والأجانب ممن جاؤوا من مختلف نواحي المغرب.

أذكر أول يوم حللت بالمدينة، كأنه محفور في ذاكرتي، كان ذلك في بداية الخريف من سنة 1986، أتذكر السنة لأنها السنة التي قضيتها خارج المدرسة بعد أن قررت التوقف.

كان الوقت صباحًا، نزلت من الحافلة على رصيف شارع المدينة الرئيس، والذي عرفت فيما بعد أنه شارع محمد الخامس بعد قنطرة وادي شراعة مباشرة، ورأيت وأنا أتفحص المكان وأدير نظري فيه غير بعيد لمحت ضريحًا سمعت وأنا في الحافلة قبل أن نصل عن اسمه سيدي أحمد أبركان ذاك القابع أمام أشجار الكاليتوس الباسقة وأشجار الصفصاف العملاقة والمحملة بأعشاش ضخمة لطيور اللقلق، ورأيتها وهي تنهض في ذلك الوقت المبكر وضوء الصبح بدأ يستأذن ولمَّا يؤذن له لينشر بساطه.

كنت أنظر إلى تلك الطيور وسمعتها وهي تقبقب بمناقيرها وتنشر أجنحتها كمن يتمدد من ثقل النوم ويستعد للخروج للاسترزاق، مشيت وأنا لا أدري أين أتجه، أخذت طريقًا على طرف المدينة قيل لي في الحافلة لما سألت إنه يتجه إلى سوق الثلاثاء، ذلك الطريق من جانبه الأيمن أشجار من شوك الغرقد على شكل زرب طويل، ووراء ذلك الشوك رأيت أكواخًا فقصدتها مباشرة لاستأنس ببني آدم؛ لأن إحساسي بالغربة زاده هدوء المدينة ووحشة ظلام يستعد لتسليم سلطته ليوم جديد، فوجدته حيًّا يشبه ورشة كبيرة، أو مقبرة سيارات، أُلقيت فيه السيارات القديمة بهياكلها وقد انتزعت منها كل قطعها، حي قصديري بمعنى الكلمة، بيوته متلاصقة مبينة من كل شيء، من أبواب السيارات أو هياكل شاحنات قديمة، ووضع لها ستائر من قماش، وكانت هناك بيوت من خشب وتراب وقصب، المهم كل ما يمكن للإنسان أن يجعل منه مأوى لنفسه يبيت فيه لما يرجع من عمل أو تجارة أو حتى سرقة، يستطيع أن يستره ويتمدد فيه ويضع فيه ثيابه، وبين تلك المساة مجازًا بيوتًا دروب ضيقة، لا تسمح إلا بمرور الأشخاص أو الدراجات، أو عربات الخضر ، قريبة بعضها من بعض بحيث يمكنك أن تسمع شخير النائم، وأنين المريض، وحديث المتسامرين وأنت تسير بينها.

في تلك اللحظات كان هناك من يستعد للخروج بعربته للعمل، كبائعي الخضر وبائعي السمك، ورأيت أحدهم يخرج بغنيمات من زريبة ويتبعه كلب صغير، كانوا يمرون من أمامي غير مبالين، ولم يهتموا لشأني ولم يكترثوا لوجود أجنبي في حيهم بينهم صباحًا لصغر سني فيما أحسب، وإلا سيعرفون فورًا أن القادم إما سارق، أو غريب، أو قريب يبحث عن أهله.

كانوا يكتفون بالنظر السريع نحوي وبعضهم يلقي سلامًا بصوت خافت وأنا أمشي وأتابع حركاتهم أحاول أن أجد مكانًا أرتاح فيه من سفري، ويكون مأواي لحين، كان بعض الوقت كافيًا لأدور حول الأكواخ وأطوف بين الدروب الضيقة، ووقر في نفسي أنه المكان المناسب في تلك اللحظة، فليس هناك ملكية خاصة، ولا حدود عقار، ولا حديقة مغلقة، ولا أسوار محروسة، إنما هياكل سيارات قديمة ملقاة، بعضها احتلته أسرة جعلته بيتًا لها، وبعضها بقي فارغًا يصفر فيه الريح، ويأكله الصدأ، وبعضها يسكنها الكلاب أو القطط، فرأيت نصف هيكل شاحنة لا باب له لكن سقفه لا يزال يمكنه أن يمنع المطر فدخلته ووضعت فيه حقيبتي التي ناء بي حملها، واتكأت عليها قليلًا لأتفحص داخل المأوي الجديد لأرى إن كان فيه حشرات أو زواحف، وإن كانت لا تزعجني كثيرًا هذه الكائنات، الشر الوحيد الذي أحذره هو الإنسان، وأنا هنا ربما في

مأمن منه، فنظرت في كل أركانه على قلتها فلم تدُر عيناي فيه كثيرًا حتى دخلت في نوم عميق.

من العش إلى لعشايش

أفقت بعد أن لسعت أشعة الشمس وجهي وجثتي، وجدتني لم أتقلب في نومي ذاك، بل أخذني النوم على الهيئة التي كنت فيها متكئًا على حقيبتي، ولم أفِق لأني شبعت نومًا، ولكن الإشراق والإحراق لم يقصرا في إيقاظي، فتمططت وأنا أسمع تحركات أهل الحي، ما بين امرأة تغسل مواعين الإفطار عند باب الكوخ وأخرى تنظف السمك، وأخرى تنادي دجاجاتها وتنشر لهم قطعًا من الخبز وما كان في البراد من شاي أو قهوة والدجاج يتسابقون ويتقاتلون على الغنيمة المنثورة على الأرض، ومن حين لآخر يأتي بعض الأطفال ينظرون إليَّ وكأنهم يستغربون وجودي هناك.. ثم يذهبون وهم يضحكون، حتى سمعت أحدهم يقول: إنه ينام في بيت الكلب..

صُدمت بقولهم ذلك واستغربت أني لم أجد رائحة ولا أثرًا لأوساخ، ولا بقايا شعر، ولا عظام، ربما كان كلبًا نظيفًا وبدا لي أنه أشرف بكثير من ذلك الذي كان سببًا أن هاجرت من بلدي .

وعرفت فيما بعد أنه فعلًا كان مكان كلب أحد منهم، ولكن مات منذ زمن ولم يسرع أحد إليه خوفًا من القراد والبراغيث وكل أنواع الحشرات والطفيليات التي تتبع الكلاب .

والـذي يبـدو لي أن الشـمس والريـاح نظفتـاه كمـا يجـب.. رأيت امرأة قادمة نحوي، ليست عجوزًا ولا صغيرة وربما كان لها أطفال في سـني أو أكبر، وربما قد يكون لها أحفاد المهم تبدو قوية في مشيتها، أتت وهي عاقدة طرف ثوبها إلى وسطها ليسهل لها العمل والحركة، كانت تكنس الحارة أمام باب كوخها، أتذكرها بذلك السروال العريض الأخضر والحذاء البلاستيكي الأسـود، الحذاء الرسـمي للفقراء والعمال، وعلى رأسـها غطاء مشدود بشدة وإحكام وقفت على باب الكوخ وقالت:

-السـلام.. هذا مكان كان ينام فيه كلب ألا تخشـى الأمراض والحشرات.. ثم أتمت دون توقف يبدو أنك لست من هنا..

-أنا من تازة، جيت هذا الصباح..

-تازة هل هربت من أهلك؟ كيف تسـافر في هذا العمر وحدك؟ فأجبتها بتنهد:

-ليس لي أهل.. أبي وأمي ماتا وأنا صغير..

-مسـكين. ومن كان يقوم عليك حتى هذا العمر؟
- جدتي.. أقصد امرأة عجوز ربتني أناديها جدتي..

-هل ماتت هي الأخرى؟ مسكين..

-لا لم تمت.. لكن تركتها وجئت لأبحث عن عمل هنا، سمعت أن أبركان فيها فرص الشغل كثيرة والناس كرماء..

-هل أكلت شيئًا؟ قم قم، تعال معي.. تبدو متعبًا وجوعان..

في الحقيقة لم أملك أن أرفض عرضًا مغريًا كهذا، فحزمت حقيبتي ومشيت معها غير بعيد وأنا أنظر حولي.. أحسست في لحظة وكأني أسير أُخذ في حرب، أو مخطوف أخذه الغجر.. لكن وسط ذلك الحي الكئيب وجدت رحمة لم أتوقعها..

عند باب كوخها أريكة بالية عليها حصير منسوج من الملابس المقطعة يسمَّى (بوشراوط)، لا شك أنها منزوعة من شاحنة.. أشارت لي بالجلوس عليها، ثم دخلت وبعد دقائق عادت بصينية فيها براد شاي وخبز ومربَّى وزيتون وقالت لي: كل براحتك.. لن يزعجك أحد هنا.

أكلت حتى شبعت، وشربت حتى رويت كأني آكل لأول في حياتي. كان ذاك بالنسبة لي وليمة قُدمت لي على الهواء الطلق بعد خروجي من سجن.

ثم أقبل رجل من بداية الدرب ما أن ظهر حتى رماني من بعيد بنظرة أصابني منها رعب، لم يكن مخيفًا في مظهره، لكن نظراته من تلك المسافة كأنه يعرفني ولا يكاد يرفع بصره عني

حتى وصل إلى حيث كنت جالسًا.. ورأى الصينية فسلم بهدوء وقال:

- من أنت؟
- ضيف الله

-مرحبا... ثم سمعت المرأة من الداخل وهي تقول.. جاء المسكين من تازة ولا أهل له، ثم خرجت وهي تنفض يدها ربما من عجين أو شيء قريب.

-طيب أتمم أكلك ومرحبًا بك.. ودخل وراء المرأة.

سمعت حوارًا يدور داخل الكوخ، كان يدور حولي وشعرت وكأني تسببت في أزمة داخلية، وعرفت حينها أنه زوجها ووصل إلى أذني طرف من حديث أنقله لكم:

-لماذا عدت من عملك وأين تركت العربة؟
- نسيت أن آخذ البراد الذي طلبت مني أن آخذه إلى الصانع ليلحمه، والعربة تركتها لأحد الزملاء غير بعيد.

... -لم يكن عليك العودة فقط من أجل البراد.

-ليس لنا غيره والآخر صغير وأنا كما تعرفينني كثير شرب الشاي.. قولي لي: من هذا الفتى الذي عند الباب؟
- يقول إنه جاء من تازة يبدو أنه هرب من أهله... من لهجته

عرفت أنه من هناك... أنت تعرف أن الكثير من أهل تازة يعملون هنا .

-في هذا العمر يهرب من أهله؟ عجيب وخطير هذا الجيل...
- أنسيت أنك هربت من أهلك وأنت أصغر منه..
- أنا هربت من زوجة أبي الظالمة، وهربت من سلبية أبي، كانت تضربني بسبب وبغير سبب وهو يتفرج ولا يقوم بأي ردة فعل.. المهم دعنا من هذا التاريخ المؤلم، سامح الله من مات ومن بقي..

-أريد أن أطلب منك طلبًا؟

-قولي..

-هل تمانع أن نلحقه بنا؟

-ماذا؟ ماذا تقولين؟

-هذا الطفل نبقيه معنا نستأجر الله فيه..

-كيف تريدين أن نبقيه معنا ونحن لا نجد أحيانًا ما نأكل..
- إنه طفل وإن بقي يؤنسنا فالرزق على الله..
- الرزق على الله نعم، لكن..

-لا تقل لكن، لا تدري بمَ يفتح الله علينا به..

-يا بنت الناس هذا ليس رضـيعًا تربينه على يديك.. إنه قريبًا سـيبلغ مبلغ الرجال.. ويذهب لحال سـبيله، وتبقين تبكين مرة ثانية كما بكيت على رشـيد الذي اسـتردته أمه بعد سـبع سـنين من الألفة.. لا أريد أن أسقط في نفس الدوامة..

-أرجوك، لا تنهره، ولا تقل له شيئًا، إن رضي أن يبقى معنا .

-دايمًا تبحثين عن الألم وأسبابه وتشتاقين للمواجع..

-يا بلقاسم.. ها العار، لا تفرط فيه.

-لا حول ولا قوة إلا بالله، لا حول ولا قوة الا بالله .

جمعت حقيبتي بهدوء، وقلت بأعلى صوتي مستأذنًا (الله يخلف عليكم وبارك الله فيكم)، ثم انسـللت راجعًا إلى المأوى الذي نزلت فيه صباحًا.

ورأيت الرجل خرج ونظر يمينًا وشـمالًا يبحث عني، ثم حمل الصينية ودخل الكوخ، وبعدها خرجا معًا وإذا بالمرأة نظرت مباشـرةً في اتجاه المأوى ورأتني وقالت مشيرة إليَّ (إنه هناك).

جاء الرجل إليَّ وقال: لا تجلس هنا يا ولدي، هذا مكان كان فيه كلب.. تعالَ عندنا بالبيت ريثما تجد مأوى يؤويك..

فقلت له: أشكرك يا عم سأنظفه جيدًا إن لم يطالبني به أحد بقيت فيه..

-شف يا ولدي إن خيمتنا صغيرة، ولكن لا يجدر أن نبقيك وحيدًا، وخالتك خدوج يسرُّها أن تقوم بشأنك..

-لا تقلق يا عم، أنا هنا بقربكم وهذا يكفيني..

-كما تشاء، لكن إذا احتجت لأي شيء فأنا أو خالتك رهن الإشارة.

ثم عاد أدراجه إلى كوخه، وما هي إلا لحظات حتى عاد ب(هيدوره) (وهي جلد خروف بصوفه)، ووقف عليَّ وقال: لا تجلس على الحديد سيؤذيك.. خذ هذه ريثما نتدبر أمرك، ولا تقلق لن نتركك..

أخذت الهيدورة ووضعتها على الأرض، وجلست عليها مسندًا ظهري إلى الباب وأنظر إلى الحارة وبؤسها، درب صغير، خيام من سمر وحصير وبيوت من طين وحشيش وقصدير، وبدأ السكان في الظهور شيئًا فشيئًا، هناك من يخرج بدراجته الهوائية قاصدًا السوق وحقيبته وراءه، وهنا امرأة تجتهد في إنهاء كنسِها أمام باب الكوخ، وأطفال يخرجون من حين لآخر لا ينقصون بؤسًا عني، ما إن يخرجوا حتى يهجم عليهم الذباب، وأرى مجموعة هناك يتهامسون ولا أشك أني موضوع حديثهم، ثم سمعت بايع السمك والقطط تتبع

دراجته ينادي بأعلى صـوته (الحوت الحوت.. السـردين السـردين.. السـردين 60 يا مسـكين)، وتخرج بعض النسـاء حاملات مواعين بلاستيكية. (زن لي كيلو.. أريد كلغ ونص).

-خذي كيلوغرامين ب 80.

-ما عندي ثلاجة يا بني وأنا وحدي..

والأخرى تعرض عليها أن تشـتري، وتقول: خذي ما شـئت وإذا أردت أن أحفظه لك في ثلاجتنا..

وطفلة أخرى بعثتها أمها بطبق معدني ودراهم في يدها الأخرى، فينظر في يدها ويعرف أنها تريد رطلًا فحسـب، فيهز رأسـه كأنه يرى الفقر سـيدًا في ذلك الحي ويريد أن يناصـبه العداء، فأعطاها وقال لها: ردي الفلوس لأمك وخذي هذا كيلوغرام وافٍ من عندي... وترد الفتاة عليه بحياء: (اللهم يرحم الوالدين).

كنت أتابع البايع وهو يقوم بغزوته ضـد البؤس، ويضـع راية للسعادة في كل بيت ويجتهد أن يرى كل من خرج يريد سمكًا أن يرجع راضيًا فرحًا... كان همه أن يزرع الابتسامة وليس أن يملأ جيبه.. وهو يردد مع كل زنة..(**القناعة بالقليل، والطمع فيما عند الجليل**)... ما فهمت في حينها معنى كلامه، لكنها جملة انطبعت في ذاكرتي، وبعده أيضًا جاء بايع البيض، ثم النعناع والبقول من كزبر

ومعـدنوس وكرافس، وهـذه الأخيرة من لوازم طهي السـمك شـيًّا وقليًا..

لم يكن لي دراهم فاشتري سمكًا، ولم يكن لي ماعون أقليه فيه، إذا اشـتريته أو حتى إن وهب لي، ومع ذلك بقي في نفسـي منه شـيء، وذلك اليوم الأول بقي مطبوعًا في ذاكرتي .

وأذكر أني تعجبت كيف يكون في هذه الأكواخ من يملك ثلاجة وتلفزيون ولا أرى أثر لعمود نور بينهم، ومع ذلك رأيت العديد من الأسـطح فيها هوائيات ودش، ثم علمت بعد مدة أنهم يسـرقون الكهرباء من الأعمدة القريبة من الحي، ومنهم من يتزوَّد من بعض الجيران الذي يسـكنون في طرف المدينة، وهناك من اشـترى مولدًا للكهرباء يضيء به بيته، ويزود جيرانه مقابل دراهم معدودة.

أخذني دفء تلك الهيدورة وأنا أتابع كل ما يدور في الحارة حتى نمت من تعب السـفر ووحشـة الغربة؛ هروبًا مما أنا فيه وربما ندمًا من فراق عُشٍ درجت فيه، ولي فيه جدتي الحنون الغالية وأتراب كنت ألعب معهم ونتعلم معًا بعض الحيل وتقنيات السرقة الخفية واليد السـريعة، وكنا نتبارى فيما بيننا فتيانًا وفتيات في ذلك الحي من يسـتطع أن يأخذ الورقة دون أن يحرك الحذاء المعلَّق بخيط، وكنت أتمرن أنا دونهم يوميًّا حتى أفوز بإعجابهم وتصفيقاتهم.

نمت نومًا عميقًا ولم أصحُ إلا على يد تربّت على كتفي، وكان رأسي ما يزال مايلًا جهة اليمين كانت فتاة في مثل سني ومعها طفل آخر، وهي تحمل طبقًا فيه سمك والطفل يحمل خبزًا، حاولت مرارًا إيقاظي حتى شعرتُ بيدها على كتفي فقمت مذعورًا، وذكرني وقوفهما علي لما كنت مغشيًّا عليَّ بين يدي ذلك الكلب، وكدت أصرخ لولا أن تقشَّعت أسارير وجههما وعرفت أني في مكان بعيد وآمن، فتنهدت وكدت أجهش بالبكاء لكن تماسكت، ورأيت الطفلين يضعان الأكل أمامي ثم انصرفا، فقلت متابعًا لهما بصوت تعِب: شكرًا.. عرفت بعدها أني لن أموت جوعًا في هذا البلد.

رائحة السمك كانت أقوى من أنفي فاعتدلت لآكل، وإذا بي أرى من بعيد خالتي خدوج خرجت من كوخها، واتجهت نحوي وهي تحمل طبقًا وقنينة ماء، حتى وقفت على باب هيكل الشاحنة مبتسمة، وقالت: قد سبقوني إليك، خذ إذا بقي لك شيء احتفظ به وإلا فكل ونحن هنا بجوارك. فرددت على استحياء: (شكرًا خالتي الله يرحم الوالدين).

(بلا جميل يا ولدي..)

لا أخفيكم، لم أشبع من أكلة السردين مثل ذلك اليوم، وكنت لا أحبه أو أتدلل على جدتي وأدعي أن رائحته لا تعجبني، واليوم أكلت حوتًا طيبًا وخبز شعير طازج وبالنسبة لي ذلك كان غداء لم

أحلم به، وكنت أتوقع أيامًا من الجوع والتشـــرذم، لكن تلقاني هذا الحي المتواضـع كضـيف مدلل، وزاد الدلال أن وجدتُ أطفالًا بدؤوا يأنسـون بي، وأحسـسـت بأني وسـط عايلة جديدة كدت أنسى معها الــحـي الــذي كــبـرت فــيــه والــجــدة والــجــيــران. بعد الأكل اسـتدعاني أحدهم لانضـم إلى فريقه لنلعب الكرة، كانوا خمسـة ينقصـهم واحد لاكتمال العدد سـتة، مباراة من ثلاثة أفراد لكل فريق، وضـعوا أحجارًا تمثل المرمى، بين الحجرين مقدار خطوة واحدة، ويسمون اللعبة سيك سيك.. لا أدرى ما سر التسمية، لكن لعبنـا حتى تعبنـا وتقرَّحـت أقـدامنـا من تلـك الكرة البلاسـتيكيـة القاسية ولم نتفرق إلا عند الغروب.

ذهبـت إلى مـأواي وأنـا متعـب والعرق قـد بلـل كـل ملابســي فاسـتلقيت لأمدد جثتي وتهدأ أوتاري، شـعرت بالعطش ويبس حلقي لكن لا ماء ومن أين لي به الآن، ولم أفكر أن أتزود منه ولا من الأكل فهذه أول ليلة لي في غربة عن بيت الجدة .

بـدأت أشــعر بـالبرد والجوع وببعض الوحـدة، وطرقـت ذلـك الهيكل وحشـــة الليل ومع ازدياد الظلام زاد خوفي وقلقي، وتذكرت نقمتي على ذلك الكلب وما فعل بي، وأنه هو السبب الأكبر لما أنا فيه الآن من غربة ووحشـة وخوف وجوع، معرض لكل شـيء، وضـعيف ولا حيلـة لي... وقـد أموت أو يُعتـدى علي وليس لي حمايـة ألـوذ بهـا ولا

وزر الجأ إليه، لا أب مشــفق ولا أم حنون، ولا حتى ذو قرابة أو رحم يكون لي غطاءً وســندًا، في هذه الليلة بدأت أســقي نقطة الحقد وأعالجها بين جنبات صــدري، وأنفخ فيها حتى انفجرت بلون أســود طغى على قلبي، وزادني العطش والغيظ جفافًا لريقي وحنقًا عليه حتى تخيلت أن لو وضع ما أجده من غل في بير فشرب منه أهل بلد لتقاتلوا فيما بينهم.

عش جديد

أذن العشـــاء وأنـا أرتجف من البرد لم يكن ذلـك من برودة الطقس بقدر ما ســـاورتني حُمى ذلك العرق الذي تصـــببت منه، فانكمشـــت أريد أن أســـتدفئ بجلباب كان في حقيبتي، فلم أدرِ هل أضـــعه فراشًـــا أم أجعله غطاء فقلت في الأخير ليكون لي لباسًـــا وفراشًا، وبقيت منكمشًا أنتظر أن يأخذني النوم، وسمعت خطوات تقترب مني فإذا به عمي بلقاسم جاء يتفقدني.

-قم معي .

-ماذا؟

-قم لا تنم هنا وحدك، خالتك خدوج أعدت لك مكانًا تنام فيه هيا بنا .

أخذني من يدي ولم أملك أن أرفض يدًا امتدت لي، وأخذ أيضًا حقيبتي ومشيت معه، ودخلنا ذلك الكوخ المحاط بأشواك العوسج، ثم بعد خطوات وجدت الخالة قد وضـــعت خوانًا على الأرض، عليه أكل وماء ونظرت نظرة خاطفة إلى البيت الذي كان مرتبًا، وفي جانب منـه مطبخ صـــغير عبـارة عن قنينـة غـاز عليهـا مجمر، وشـــبكـة

بلاســتيكية عليها بعض الصـحون والكؤوس والسـكاكين والملاعق، وبجانب ذلك غير بعيد مرحاض مظلم على بابه حجاب من ثوب، وغير بعيد مجموعة من قنّينات الماء والتي كانت في الأصــل لزيت المائدة من خمس لترات، بعد أن ينفد منها الزيت تنظف وتســتعمل لجلب الماء لأن تلك الأكواخ كلها ليس فيها حنفيات ولا حتى بنية تحتية .

لم أتبين كل البيت لأن الإضاءة ضعيفة من قنديل قديم إلا أني لاحظت مكانًا معدًا للنوم، لم أشــك لحظة أنه لي ورأيت غرفة فيها ضوء شمع عرفت أنها غرفتهما الخاصة.

طلبت منا الخالة أن نجلس لنأكل فأكلنا وأشار لي عمي بلقاسم لمكاني الذي رأيت آنفًا، وقال: ســتنام هناك لكن قبل ذلك ســتشــد خالتك رأسك بعصابة تخفف عنك بعض الحرارة.

ذهبت إلى الفراش وجاءت خالتي خدوج ببعض دواير من فاكهة الليمون الحامض ودوائر من البطاطس، ووضعتها على جبهتي ورأسي وشدتها بقطع قماش وأعطتني ماء فشربت ونمت.

أجواء التحليق

رفع أذان الفجر غير بعيد وتذكرت أنه المسجد الذي رأيته يوم أمس لما نزلت من الحافلة قريبًا جدًا من هنا، ولم يكمل النداء حتى سمعت عمي بلقاسم يستعد للخروج من غرفته بمصباح يدوي، ويذهب للمرحاض ثم يتوضأ فكنت أتابع حركاته في الكوخ وأنا في مكاني، ثم جلست أنظر إليه وهو يكمل وضوءه، ثم بعد ذلك أيقظ الخالة، ثم خرج ولم أعرف أنه ذاهب للصلاة حتى عاد وانا في فراشي

ليس بي نوم.

فقال لي: هل تذهب معي إلى السوق؟ سنشتري سلعة اليوم ونرجع ؟

ما إن سمعت كلمة السوق حتى هببت من فراشي، وقلت على الفور: نعم.

-هل أصبحت بعافية؟

-نعم أنا بخير.. حتى العصابة التي كانت على رأسي ودوائر البطاطس والحامض لم أدرِ متى سقطت...

-المهم أنك بخير، إذن هيا استعد.

لا أخفيكم فرحتي أني سأرى السوق لأول مرة، سوق الثلاثاء ويسمَّى أيضًا سوق عين السلطان، لبست حذائي البلاستيكي بسرعة وبقيت أنتظر العم بلقاسم، فلبس معطفًا خفيفًا وأخذ عربة خضر كان تركها أمام باب الكوخ وانطلقنا. الصباح لا يزال يتمدد ويتنفس بهدوء، والعصافير خرجت من أوكارها، ورأيت اللقالق تغادر الأعشاش الكبيرة في اتجاه أعلى الوادي، ونحن نمشي في طريق طويل عن اليمين أرض واسعة فيها أشجار الزعرور، قال لي العم: (هذا جنان باكورة) محاط بالأشواك على طول الطريق، ومن الجهة الأخرى طرف وادي شراعة المليء بالقصب وأصوات الضفادع التي تملأ جنبات الوادي.

الطريق يعجُّ بالحركة كأنما الناس في سباق من يصل أولًا، أصحاب عربات الخيول وعربات أخرى يجرها الحمير، والكثير ممن لهم عربات خضر يذهبون جميعًا إلى السوق للتزود بما يحتاجونه للبيع، ورأيت أطفالًا في مثل سني ورجالًا وشيوخًا يجرون أيضًا بعربات فارغة، عرفت فيما بعد أنهم الحمالون الذين يحملون عن الناس أو التجار بضائعهم وأمتعتهم مقابل أجرة معلومة.

كان عمي بلقاسم يدفع العربة بسرعة وأنا أجتهد كي أواكب سيره، وأحيانًا أدفع معه العربة، وهو من حين لآخر يسمي لي بعض الأحياء التي مررنا بها، (الحي الذي كنا فيه هو شراعة، وبقربنا لما

خرجنا من لعشـــايش حي حمزة، وهذا الذي تراه هناك يســـارًا حي بويقشـــار، وعن اليمين هذا الذي يقابله وســـنمر من هناك حي الرومية)، (حي الرومية؟ سألته مستغربًا)، (نعم يسمَّى كذلك لأن به فيلا كبيرة لرومية فرنسية تعيش هناك من زمن الاستعمار، تعيش فيه هي وأختها.. ســـأريك منزلها، فيه أشـجار وحديقة جميلة مليئة بالورود، سنراه عند ذهابنا وعند عودتنا

بعد عدة دقائق قال لي دون أن نقف: هذا هو منزل الرومية.. منزل مطل على الوادي مباشـــرة، حواليه أشـجار كثيرة وأشـــواك الغرقد ونخلات وأشجار قصب، وتابعنا السير وأنا أتملَّى بالطبيعة الجميلة الخلابة، مياه وأشجار كثيرة، المثمرة وغيرها.

ومشـينا خطوات وجدنا أنفســنا على مقربةٍ من الباب الرئيس للســـوق، بـاب عريض مقوَّس وعلى طول الطريق دكاكين يمينًـا وشـمالًا، والناس بين ذاهب وآيب. شـاحنات تدخل محملة بالخضـر وأخرى بالصناديق وثالثة بالمواشي وعربات الأحصنة وعربات يدفعها الحمَّالون.. يبدو أن هذا السوق كبير جدًا.

هـذا هو الســـوق قـال عمي بلقـاســـم.. يبـدو أنـك فرِح جـدًا بالوصول إلى هنا .

-نعم، أجبت على الفور، ولم يدرك مدى فرحتي وعمقها، وحسبها فضول طفل جاء من بلد بعيد، ربما في حياته لم يرَ سوقًا بهذا الحجم .

إنه السوق الأسبوعي فيه كل شيء، كل ما يخطر لك على بال الخضر والفواكه والمعروضات البلاستيكية، والدواب والدواجن والحبوب والعلف والتبن، والفصة وأدوات الفلاحة والزراعة، وفيه من ينادي على مساحيق ضد البرغوث والبق والقمل، وأدوية لعلاج المفاصل والأكزيما وأدوية أخرى ومبيدات كل أنواع الحشرات... كل هذا ذكره لي باختصار شديد، (لكن السوق لم يكتظ بالناس بعد) قال عمي بلقاسم، التجار تقريبًا هم الذين يسبقون لإعداد سلعهم ومبيعاتهم، ويأخذون أماكنهم في السوق أما نحن فسنذهب فقط إلى سوق الجملة في الناحية الأخرى من الشارع الرئيس، نأخذ صندوق بطاطس وصندوق طماطم وصندوق بصل، وإذا وجدنا شئيًا آخر مثل الفلفل أو الجزر أيضًا نأخذه حسب ما عندنا من فلوس.

السوق مصدر رزق الكثير من الفقراء والأغنياء، كما هو مصدر عيش الكثير من اللصوص كبارًا وصغارًا، والسماسرة والمحتالين و.. وأنا وجدت مكان عملي الأسبوعي الذي أضرب فيه ضربتي الرئيسة، وأهبر الهبرة الكبيرة التي تكفي لباقي الأيام .

والطريق غير بعيد، بل سهل جدًا من لدن خروجي من الباب إلى لعشـــايش حوالي ربع ســـاعة، في طريق طويل لا انعطاف فيه على رصيف الوادي .

احتـاج أن أزوره كثيرًا حتى أعرف منـافـذه ومخـارجـه وأعرف أمـاكن الاكتظـاظ وأرى زملائي في المهنـة عن قرب، أراقـب كيف يسـرقون وكيف ينجحون في مهمتهم، وأين يذهبون ومن أين يمرون، وربما ازداد حنكة وخبرة هنا .

المهم الآن أني وجدت مكاني المفضل، وسنعود أدراجنا أنا وعمي بلقاسـم إلى لعشـايش، لنجد الخالة أعدت الشـاي والخبز وما تيسـر من مربَّى وزيت زيتون.

بعد أن أخذنا حظنا من فطور الصباح بدأ عمي بلقاسم بإفراغ الصـناديق في العربة ويترك حوالي النصـف من كل صـندوق، وكان يعد الخُضَـر جيدًا ويتفقدها وينظر الجيد منها والرديء ويقلبها، وأحيانًا يحوقل إذا وجد أن الصندوق به خضرًا فاسدة أو مسوسة، ثم رصَّها جيدًا .

وكانت الشـمس قد شـمرت عن ذراعها ليوم آخر، وأشـعلت أشـعتها حتى وصـلت خيوطها على أهل الحي لتبشـر بيوم حار قُبيل الضـحى، كان ذلك موعد خروج عمي بلقاسـم بعربته فعرض عليَّ أن أذهب معه، فوافقت دون تردد لحرصي أن استكشف هذه المدينة،

فقال لي: (اليوم سـأجرب حيًّا بعيدًا من هنا يسـمَّى البني الجديد وما جاوره، ندور هناك لعل الله يبارك لنا في هذه السـلعة)، أنا متشـوق لأرى المدينة كلها، فكل عرض مقبول مسـبقًا.. فخرجنا ندفع العربة التي ازداد وزنها وثقل حملها، واخترقنا بها عدة أحياء حتى وصلنا حيًّا أكثر رقيًّا ونظافة، ومررنا على مدرسـة للبنات اسـمها (مدرسـة أسماء)، ثم انعطفنا إلى اليمين ودخلنا دروبًا ضيقة وأخرى واسعة، وعمي بلقاسم ينادي: (بطاطا بطاطا، طُماطيش.. بصله... بطاطا 40 دورو 40..) في نغمة متوالية، يعيدها وأنا أنظر إليه واكتشـف هذه الحرفة التي تحتاج إلى كل هذا، التبكير ورأسـمال لشـراء البضـاعة وحمل الأثقال والمساومة والمغامرة على شدة المنافسة، ثم الصراخ لأجل البيع، وأكثر ما كنت أكرهه هو مطاردة الشـرطة لهؤلاء المسـاكين، أرى هذا وأقارنها بحرفتي.. لا رأسـمال فيها، ولا تبكير إلا يومًا واحدًا في الأسبوع، لا صراخ، لا بضاعة تُشترى، ولا أخرى تُباع إنما خروج إلى السوق وتخير للزبون وتحيُّن للفرصة ثم الانقضاض فالانسحاب مباشرة.

لكن تجارة عمي بلقاسم ألهمتني فكرة لأغطي بها على محصولي وعن السؤال الضروري (من أين لك هذا؟)، لا بد أن أفكر في تجارة ولو خفيفة لا أحمل فيها ثقلًا، ولا أجر عربة تكون عبئًا علي.. لا بد أن أجد الفكرة المناسبة، حرفة خذ وهات، هاء وهاء، أو شيئًا قريبًا منها.

دُرنا كثيرًا بين الدروب في هذا الحي الذي يبدو راقيًا ونظيفًا، وكنا أحيانًا كثيرة نعود لنفس الأزقة ويخفف السير أحيانًا، وأحيانًا أخرى يقف ليرفع صوته بالنشيد الرسمي لجولته: (بطاطا 40 بطاطا 40 عيش يا مسكين البصلة 30... لحرور لحرور.. لعنب موسكا.. موسكا) وكنت أحيانا أردد معه، وأحيانا يزن الخضرة ويضعها في كيس استجابةً لامرأة عند بابها، فأذهب إليها بالكيس وأرجع بالنقود

وكأنما عدت بغنيمة، فأضعها في يده ويقلبها ثم يودعها محفظته، لا أدري لماذا كانت تلك المحفظة لها جاذبية في نفسي وتتابعها عيناي وأراها أكثر مما أرى أشياء أخرى أمامي، مع أني لم أفكر في سرقة الرجل الذي آواني، لكنها بليَّة الإدمان.. وكان أكثر شيء يسحرني حين أرجع بورقة نقدية؛ فتبدأ أناملي في تقليبها واللعب بها وإخفائها بين أصابعي وإدخالها في الكم ونقلها بخفة إلى جهة أخرى، حتى خفت أن أثير انتباه عمي بلقاسم ويشك في أمري .

احترمت هذا الرجل كثيرًا لما رأيت من نزاهته في البيع وحرصه على ضبط الميزان وتوفية الموازين، وكان يردد دايمًا: (أموال الناس نار)، (أفضل أن يأخذ الزبون أكثر من حقه على أن آخذ بالغش أكثر من حقي).

لم أكن أرى رأيه لكني احترمته وكبر في عيني، رجل في أواسط الأربعينات، لكن قساوة الظروف تقاسمت تقاسيم وجهه وخطَّت أخاديد في جبهته، وكرَّت على يديه لتجعل فيها شقوقًا وجفافًا،

فغلظت كفاه وخشنت أظفاره وتقوست قبضته، فكان لا يستطيع أن يبسطها إلا بعناء .

يلبس معطفًا لا أشك أنه ورثه عن أبيه أو جده أو اشتراه من الخردة، وتحت المعطف قميص من قطن فيه مربعات، وسروال بلون بني من القطيفة الغليظة وحذاء أسود من جلد أثرَّت فيه السنون الطويلة ومرُّ الأيام، بين برد، وحر وغبار وأوحال.. كل مظهره ينمُّ عن رجل الخضر المثالي لم يبقَ إلا أن تنبت نباتات بين أصابعه وتخرج زروع من جيوبه أو نعناع من طاقيته الصوفية التي لا يبارحها صيفًا ولا شتاءً، تخفي صلعة طويلة وفي حافتيها بعض الشعر الذي لو كان أخضر لما لفت انتباه أحد..

مررنا بدكان للتغذية العامة فأوقف عربته ملاصقًا للرصيف، وطلب مني أن أبقى قربها ريثما يرجع، فجلست على الرصيف أنتظره، وأنظر إلى المارة الذين ينظرون أحيانًا إلى البضاعة وينصرفون، وأحيانًا أخرى يسألوني عن الثمن فأجيبهم وأشير إلى أن البائع دخل إلى ذلك الدكان.

بعد لحظات جاء عمي بلقاسم وفي يده خبزة مقسومة نصفين، ويبدو من مظهرها أن صاحب الدكان وضع فيها سمكًا أو بيضًا ثم قال لي: (هيا نذهب إلى مكان فيه ظل لنأكل، ثم بعد ذلك نسرع إلى مسجد عمر فقد قرُبَ أذان الظهر، نصلي هناك ونبيع إن شاء الله إذا لم يمنعنا أصحاب الحال.(

فدُرنا في حارة فيها أشـجار فجلسـنا في ظلها على الرصـيف، وتركنا العربة عند ظل شجرة أخرى، وناولني شطر الخبزة الذي قال إن فيه جبنة وبيضًـا وقليلًا من زيت الزيتون، كانت وجبة لذيذة بسـبب الجوع الذي كاد يفتك بي، والتعب الذي لم يترك لركبي وقدمي طاقة لباقي اليوم .

التهمت اللقمة كلها فبدأت العافية تعود لي ورأيت عمي بلقاسم يعالج اللقيمات، وينظر مرة إلى العربة ومرة إلى الناس ومرة أخرى يسهو يكلم نفسه، وبعد أن أنهى أكله بقي جالسًا لدقائق، ثم رأيته يغفو ويفيق وأحيانًا يذهب به النُّعاس حتى ينفتح فمه، ثم نهض وقال هذا وقت الظهر هيا إلى مسجد عمر..

لولا الفضـول الذي كان أكثر زادي ووقودي لما زدت خطوة واحدة معه، لكن حب الاطلاع والاكتشـاف للمدينة ومعرفة دروبها وأزقتها عزَّز تلك الطاقة، فانطلقت معه واخترقنا شـارعًا طويلًا حتى وصـلنا غير بعيد من المسجد إذ سـمعنا أذان الظهر، ووجدنا أمام المسـجد عربات أخرى للخضـر والفواكه وباعة النعناع والبقول والبيض، يقفون قبالة الباب العريض للمسـجد، ومنهم من ترك عربته ودخل للمسـجد ومنهم من كان يعد سـلعته ويتخيرها وينقيها ويجعل أفضـلها وجهًا للبيع، أما عمي بلقاسـم فاختار الباب أمام دكان خياط جلابيب وترك العربة قائلًا: هل تذهب معي لتصـلي أم تبقى أمام العربة؟

فكرت قليلًا، إن دخلت وسط الناس ستنشط عادة النشل وتتحفز بشكل غير عادي، لكن المكان له هيبة ولن أجد الراحة للسرقة فيه، هذا مسجد، واعتذرت عن عدم الدخول وفضلت البقاء بجانب العربة .

أخذت كرسيًّا كان عمي بلقاسم وضعه تحت العربة وجلست أمامها، ودخل هو المسجد دون أن ينظر إلى العربة ولا فكر أن يوصي بشيء، دخل وكأن أمر العربة لا يعنيه، ولا التجارة ولا خوف السُّراق، أحسست وكأنه ألقى الدنيا كلها وراءه.

استغربت موقفه ذاك وأنَّى له هذا الاطمئنان، لكن بعد دقائق فهمت لما سمعت إقامة الصلاة دخل كل الباعة، وبقيت العربات لوحدها لا أحد يحرسها، وبقيت وحيدًا كأني أنا أحرسها كلها، وأنا قابع فوق ذلك الكرسي أمام الخياط .

ومن حين لآخر أطل على الجهة الأخرى لأرى العربات ثم أرجع إلى الكرسي، يبدو أن هذه المدينة لا يسرق السراق فيها من يدخل المسجد ليصلي، هكذا فهمت، أو أن الله يحرس لهم رزقهم، ومن يدري فلربَّما ينتظر النشالون خروج المصلين ليرَوا المحفظات عند الشراء، وربما كان النشالون يصلون أيضًا، ما لي ولهم كل واحدٍ حرٌّ فيما يفعل، وكل واحد سيدخل قبره وحده كما كانت تقول الجدة. طال جلوسي على الكرسي حتى ساورني النوم وإذا أصوات تتعالى فجأة، وكأنها أفاقتني من نُعاس ولم أنعس (البطاطا 30 البصلة

20الرخا يا مسكين.. العنب 60 البطيخ البطيخ..)، كل صاحب عربة خرج بعد الصلاة مباشرة إلى عربته وهو ينادي على ما عنده، حتى قبل أن يصل إلى عربته .

وبعد دقايق جاء عمي بلقاسم هو أيضًا وبدأ النداء على بضاعته.. لكن أحسست أنه كان محرجًا من ثمنه الذي كان أغلى من الآخرين؛ فغيَّر هو أيضًا وصار يصرخ: البطاطا 30 البطاطا 30 لا غلاءَ على مسكين...

بعد نصف ساعة تقريبًا تفرَّق الباعة ووضعنا الكرسي مكانه، وقال لي:

-عندنا مشوار مهم نقوم به وبعد ذلك نرجع إلى البيت.. سننزل من هنا مباشرة.

مشينا مدة ثم وقفنا أمام مركز شرطة، لم أعرف ماذا يريد عمي بلقاسم أن يفعل هناك، لكنه قال لي: تعال معي..

دخلنا المركز ووجدنا أُناسا جالسين ينتظرون، وكان أحدهم يسأل كل واحد عن سبب زيارته، ويوجهه إلى مكتب ما أو يقول له انتظر هنا، حتى وصل إلى عمي بلقاسم فدار بينهما حوار اقشعر منه بدني، لم أكن أتوقع أن يكون الأمر بسببي، وزاد خوفي لما أشار إليَّ وقال هذا، كدت أسقط من الهلع واصفر وجهي فقال له الشرطي: اتبعني.

تبعناه إلى مكتب غير بعيد فطرق ثم دخل، قال: (هذا السيد يبلغ عن قاصر، يقول إنه جاء البارحة في الحافلة من تازة، ويريد إبلاغ الشرطة بأن الطفل في كفالته إذا كان مسجلًا في المختفين أو المفقودين).

-تفضل.. ثم قال لزميل له:

خذ بطاقته الوطنية وتوقيعه على بلاغه، وإبقاء الطفل معه بضمان محل إقامته حتى تحقق الشرطة في القضية، وخذ اسم الطفل وسجِّل روايته ويمكنه المغادرة حتى يستجد أمر ونرسل له دعوة.

ثم خرجنا في صمت وحلقي جاف ليس فيه ريق، لماذا يبلغ عني عمي بلقاسم؟ قد صدم ثقتي فيه، وحطم تلك الصورة التي رسمتها له، ولم أتكلم ودار في خلدي أفكار لم أفهمها، وتحركت أحقاد كانت خامدة مع هذا الرجل وشعرت كأنه غدر بي، وما أطمعني فيه سوى حسن ثقتي به، لكنه بمجرد خروجنا من باب الشرطة قال لي: (لا تقلق يا يوسف، ليس عليك باس ولن أسلمك، ولكن القانون صعب، وأنت طفل لا يحق لي أن أبقيك معي دون أن أبلغهم أنك عندي، حتى إذا وُجد من يبحث عنك ستجدك الشرطة، وأتجنب أية مساءلة فيما بعد، أنا أعرف أنك صادق وأنك هربت وفهمت قصتك، لكن هذا إجراء احترازي مطلوب مني.

-يا عمي بلقاسم أعرف الكثير ممن هربوا لأهلهم وكان منهم من يرعي الغنم في مناطق بعيدة عن بلده، لم تسـأل عنه شـرطة ولا درك.. وبنات أيضًـا يخدمن في البيوت بعيدات على أهلهن لم يُعرف لهن أهل ولا قرابة، ولم يسأل عنهن أحد..

-كيف عرفت كل هذا؟

-كان في حيِّنا الذي عشـت فيه كثير من الغرباء لا نعرف لهم دارًا ولا دوارًا..

-ربما.. لكن يا ولدي لا تؤاخذني قد حدث لي مع الشـرطة مشكلة عويصة بلغت بها المحاكم، كنت ربيت طفلًا صغيرًا حتى كبر، وكانت أمه هي من تركته لما ولد ثم لما نشـأ وترعرع جاءت تبحث، واتهمتني أني أخذت ابنها دون رغبتها ووصلنا إلى المحكمة التي حكمت لها، ولولا لطف لكنت ما أزال بالسجن... لذلك خفت من المصائب، ولما يخبئه المسـتقبل.. وقد لاحظت أن خالتك خدوج تريد أن تبقى معنا وأنا لست ضد ذلك، ولكن حتى أطمئن على نفسي وعليك ولكي أرضيها قمت بما يمليه عليَّ العقل والحذر .

ثم دفع العربة وبقي يشـرح لي الموقف وأنا لسـت مقتنعًا تمامًا بقوله، ولم أفهم تصـرفه ذاك إلا أنه غدر بي، حتى رأيت عينه تدمع عندما ذكر (رشـيدًا) اسم الولد الذي ربَّاه لسنوات، واعتاد رؤيته في البيت وألِفه وأحبه، وفي الأخير انتُزع من يده بعد أن صـار تقريبًا في

عمري، عندها أشـــفقت عليه وصـــدقت روايته وفهمت ما قام به، لكن هناك شـــيء واحد كان بودي أن لم يحصـــل: لم أُرِدْ أن تراني الشـرطة، لا صـورتي ولا اسـمي ولا أن ترى شـكلي... هذه وصـايا كبار اللصـوص، أخذناها ونحن نتعلم الحرفة ممن هم فوقنا.. هي مبادئ أسـاسـية يعرفها أصـحاب الحرفة ويتناقلونها فيما بينهم، ويذكِّرون بعضهم البعض بها.

في الطريق كان عمي بلقاســم ينادي على خضــره وأحيانًا يدفع العربة فقط، فربما اســتوقفه زبون أو ســأله فقط عن ثمن وتبدأ المساومات..

رفرفة جناح

لم أحب هذه المهنة المتعبة مطلقًا، وأشفقت على عمي بلقاسم منها لكثرة أهل الشحِّ واللجاج في السوْم، وربما اشمأززتُ من زبون ذو هندام يبدو راقيًا وربطة عنق ويساوم المسكين على نصف درهم ربح.. وهو يرى بؤسه، والآخر يستمتع بأخذ السلعة بثمن الشراء وكأنه يأخذها منه قسرًا، وأرى عمي بلقاسم ليِّنًا هيِّنًا لا يكثر الكلام ويقبل التفاوض ويتسامح مع من كنت أراهم في نظري لا يستحقون، لكن لا أتدخل، إنما أزيد في ملء جعبتي من الحقد على هذا العالم الظالم الذي لا يرى سوى نفسه، بل يرى أن البائع جشع وطماع وكذاب فقط لأنه يريد أن يربح درهمًا أو درهمين، مع أن كلفة البضاعة كلها لو بيعت ربما يسترد رأسماله وشيئًا يسيرًا يعيش به، فلقد رأيت بنفسي ما يرميه عمي بلقاسم من الفاسد من السلعة والحقير، وما في الصندوق من تراب يزيد في وزنه.

هذا العالم زادني سخطًا وحنقًا عليه ورأيت منه اليوم فقط ما ملأ صدري غيظًا على أكثر الناس، قليل هم الذين لا يساومون، بل يشترون ويتركون ما بقي من الصرف للبائع، ما يجعل المسكين يكثر الدعاء لهم مثل متسول أخذ معونة أو محتاج سأل معروفًا.

كان بودّي أن أصرخ في وجوههم: (إنه لم يأخذ سوى حقه أيها الأشرار، إذا ربح في اليوم الكامل مئة درهم أو مئتين هل خفتم أن يصير غنيًّا أيها المنافقون، هل ترَون أن تلك الأرباح ستجعله ثريًّا دونكم؟ تتيبسون من أجل دراهم تعطونها مقابل بضاعة فرحتم بها، ولا ترَون بأسًا من شراء علب السجائر دون مساومة لتحرقوها في السماء أيها الأوغاد).

كان بودّي ذلك وكان أيضًا بودي أن يرفع عمي بلقاسم رأسه لأنه يبيع سلعته بشرف، ويتاجر بأمانة، ويحنى رأسه كأنه إذا أخذ درهمًا زايدًا فقد أكل حرامًا، ما أحراه أن يمشي مرفوع الهامة وعلى كتفه وسام الشرف، ولكن عنده من التواضع ما يثقل هامته، ومن الحياء ما يلزمه الرضوخ لأهل الشح، لذلك لا أريد أن أكون مثله.

أريد حياة كريمة، ليس فيها استعطاف لأحد، ويعجبني أن أعتمد فيها على نفسي ومهاراتي وبراعتي وذكائي، لا أحب المسكنة، ولا الانحناء لأيٍّ كان، ولا وضع رأسي في الأرض، أكون كما أريد أو لا أكون، لم يعد لي تعاطف كبير مع أحد، أرى كل القادرين سواسية أمام الآلة التي أعدها لهم، لأنهم لا يستحقون مني سوى الخدمة التي تناسبهم، خدمة إفراغ الجيب بالكامل، دون أن يشعر الزبون بأي ألم، خدمة مضمونة، أتوقع لي مستقبلًا مبهرًا في هذه المدينة، مع هذا الكمية الهائلة من المشاعر التي تأخذني يمينًا وشمالًا، وتغذي عندي العزم والإصرار على إتقان عملي وترك بصمة في عالم

النشـــل، النشـــل النظيف، آخ يا عمي بلقاســـم لو تعلم ما يدور في رأسي ما فتحت لي كوخك، ولا تركتني حتى أكمل الشاي الذي شربته البارحة .

بعد جولتنا التي طفنا بها عدة أحياء وكان آخرها حي حمزة القريب جدًّا منا، وبعد أن صـلَّى عمي بلقاسـم العصـر في مسـجد قريب من الشارع الكبير وباع بعض ما بقي له، ثم عدنا ببطء واضعًا يدي على العربة من شـــدة التعب حتى ظهرت لعشـــايش، ورأيت الأكواخ على مقربة وتبيَّن لي الحي كله وراء تلك الأشـــواك، وأدركت أيضًا أن الوادي قريب جدًّا، واستغربت كيف يأمنون على أنفسهم هنا، لو زاد منســـوب المياه من حملات وســـيول قد يأخذ أهل الحي كلهم، فهم ليسـوا على ضـفاف الوادي بل وسـطه، ولكن لما تراجعت المياه وقل الصـــبيب منذ مدة طويلة حســـب ما يبدو، أنِســـوا بهذا القرب فكانوا يغسـلون ثيابهم وأفرشـتهم فيه، وفيه يلعب صـبيانهم ويعومون، هكذا أخبرني الصـــبيان في مباراة الكرة أمس، كان كل واحد يخبرني بشـــيء كأنما يطلعونني على معالم المدينة، أو أماكن السياحة المفضلة ..

كانت مباراة تعارف واكتشـاف وتحديد من يكون صـديقًا، ومن ســـيبدأ أول نقطة عداوة معي فقط لأني راوغته، ومررت الكرة بين رجليه فـأضـــحكت عليه البـاقين، وأخـذت لقـب التيمومي المراوغ الكبير في مباراة واحدة، مع أني لا ألعب الكرة كثيرًا ولســـت شـــغوفًا

بها، ولكن أجواء المونديال أحمت حماسنا، وكنا كلنا نتذاكر أخبار المنتخب الذي يتألق في بطولة العالم ببلاد المكسيك.

رأيت بعض أصدقاء البارحة فحيَّيتهم وحيوني وأنا أدخل كوخ عمي بلقاسم، وطلبوا مني أن أشاركهم في مباراة أخرى فأخبرتهم أني تعِب الآن ربما بعد قليل ألحق بهم.

دخلنا وقد بقي على المغرب ساعة أو أكثر، أخذ عمي بلقاسم يعيد باقي السلع إلى الصناديق ويغطيها، وجلست في المكان الذي نمت فيه صباحًا كان لا يزال معدًّا إلا أن الغطاء مطوي وحقيبتي بجانبه، دخل عمي بلقاسم وهو يبتسم فبادرته خالتي خدوج – كيف كانت الغلَّة؟

-الحمد لله، يبدو أن يوسف طالعُ سعدٍ علينا ونظر إليها مبتسمًا وهو يمسح ذراعيه ووجهه بمنشفة، كان الشعر الكثيف يغطي ذراعيه القويتين ولحية خفيفة يبدو أنه لا يهتم برسمها ولا يعتني بها، فبادلته الابتسامة بصدق لأني لم أكن أظن أنه كسب كثيرًا ذلك اليوم أو أكثر من المعتاد، ولكن فرحت لذلك، فردت الخالة قائلة :

-الحمد لله، الله يطرح البركة ويجعله وجهَ سعدٍ دايمًا عليه وعلينا ويسر له الرزق أينما كان.

-آمين، رد عمي بلقاسم وتبعته أنا أيضًا ورددتها مرتين والثالثة في نفسي على ما أخفي من قصد، وزدت في الدعاء اللهم كثر أصحاب المحفظات المليئة بالأوراق النقدية واجعلهم في طريقي ذهابًا وإيابًا.

وضعت الخالة الخوان أمام فراشي وجلس عمي بلقاسم بجانبي، وهي جلست في الجهة المقابلة بعد أن وضعت طبقًا للبطاطس والجزر مع حبة من البصل الأحمر مقسومة على أربع، وبدأنا الأكل ونحن حول المائدة دار نقاش آخر لم يدر لي في الحسبان وكنت قد أنهيته مع الجدة.. نحن في بداية أكتوبر والموسم الدراسي يبتدي حوالي النصف من الشهر الماضي، ومع ذلك كنت ألاحظ المحلات التجارية والمكتبات تخرج الأدوات المدرسية؛ استعدادًا للانطلاق في العام الجديد والآباء والتلاميذ يقاتلون في ذلك المعترك حول من جاء أولًا ومن لا يحترم دور الآخر، ومن يعتذر بأنه مشغول وصاحب المكتبة وأعوانه ينظرون كيف يحلون المشكل بين كثرة الأيادي الممدودة بالورقات التي فيها المطلوبات المدرسية..

قالت خالتي خدوج: ألا تحب أن تعود إلى المدرسة...؟

-لا، فأنا خرجت منذ عام ولا تصلح لي المدرسة .

-الدراسة شيء مهم في الحياة يا يوسف، ردت الخالة.

-نعم الدراسة أهم شيء في الحياة، انظر إلى حياتنا نحن لم نتابع الدراسة كيف نعاني..

لم أدرِ بما أجيبهم سوى أن تعللت بأني بقيت في الخامس ابتدائي ثلاث سنوات ولم أنجح فيها لذلك قررت ألا أعود، الآن كبرت على الدراسة ولن يقبلوني، قلت مجيبًا.

-أنت لا تزال صغيرًا.. ويمكنك أن تتابع دراستك، عقبت خالتي خدوج ثم أردفت: عمك بلقاسم يمكن أن يذهب معك إلى المدرسة ويكلم المدير أو المعلمين وترجع إلى الفصل..

-نعم نمر غدًا في جولتنا الصباحية من المدرسة وأتحدث مع المدير لا تقلق..

-لكن لا أظن أنهم يقبلون فعمري الآن تقريبًا 13 سنة، والمفروض أني في الثانية أو الثالثة إعدادي.. لكن لم أنجح حتى في الحصول على الشهادة الابتدائية.

-سنحاول لا تقلق.. هكذا ختم ملف الدراسة من طرف عمي بلقاسم، وبقيت آكل على جوع لكن دون رغبة فيه، وأسرط الأكل كما أسرط تلك القرارات التي تُتخذ ضدي.. هل أهرب من هذه المدينة مرة أخرى؟ أنا هربت لكيلا يتسلَّط عليَّ أحد، ولم أقنع الجدة إلا بعد طول جدال وأيام هروب طوال من المدرسة، لكني الآن حديث عهدٍ بهذه الأسرة ولا أجرؤ على مناقشتهم أحرى معارضتهم، ولم ترتفع الكلفة بعدُ بيني وبينهم، ولهم يدٌ عُليا بيضاء تقف دون لساني، ومعروف لا قِبَل لي بكفائه، زجاجي هش لا يصمد أمام حسن نيَّتهم

ونبل مقصـدهم، وانعقد الكلام على القرار، وقضـى صـمتي على كل أمل للتراجع أو إعادة طرح الموضوع للنقاش.

زغب ثم ريش

بالنسبة لي كانت أيامًا سريعة مثل تلك القرارات، لم أتضرر منها ولكنها لم ترُق لي، فاضطررت للتأقلم، ولا قِبَل لي بمغامرة أخرى بعد أن وجدت مأوى وأسرة، واكتفيت من المدرسة بالذهاب صباحًا على السابعة والعودة مع العاشرة، ثم بعد الظهر إلى الرابعة، اكتسبت منها أهم شيء في مشواري وهو معرفة الطريق إلى مدرسة ابن هانئ الأندلسي 1 قرب المسجد العتيق، كان صعبًا أول الأمر حيث رافقني عمي بلقاسم إلى المدرسة، وأوصلني إلى الفصل وتحدث مع المعلم قليلًا ثم مضى وتركني، وفي الأيام التالية كان يرافقني لبعض الأمتار بعد أن وجدت رفقة من أطفال الحي وإن كان يصغروني في العمر قليلًا، ولكن أنست بهم.

كان للخالة خدوج قريب اسمه الحاج قدُّور يسكن على مقربة منهم في حي حمزة يسكن محلًا صغيرًا اكتراه من صاحبه بثمن بخس، مهنته صنع وترقيع الفردي التقليدي اليدوي، كنا نزوره أنا وعمي بلقاسم لما تبعث له الخالة شيئًا من الأكل للعشاء، وأحيانًا كنت أذهب وحدي إليه وآخذ الطعام وأبقى معه قليلًا ثم أرجع، وتوطدت بيننا علاقة طيبة، كلما أحضرت له طبقًا من البصارة أو العدس

أحيانًا يعطيني حلوى شامية أو شكولاتة، وكانت من الهدايا الغالية عندي فلم نكن لنا شرف أكلها إلا لمامًا .

وأحيانًا أبقى معه حتى يجهز براد شاي على قنينة غاز صغيرة وأشرب معه كوبًا ثم أرجع.. وكان أكثر ما يشدني عنده أنه كان يتركني أركب دراجته الهوائية رغم كوني لم أكن أعرف بعد ركوبها لعلو الكرسي، ومع ذلك كنت أحاول وأحاول وأحيانًا أسقط وأقوم، وكان هو لا يتذمر مني بل يواصل أعماله أو تجهيز شايه حتى يناديني: يا يوسف يا بني، عليك أن تذهب الآن، العشاء سيؤذن قريبًا وحيُّكم مظلم أخشى عليك التأخر، خالتك خدوج تنام باكرًا ستقلق عليك..

لم يكن يهمني التأخر، ولم أكن أخاف الذهاب ليلًا هناك لأني ألِفت الحي وعرفت مداخله، حتى كلابه تعرفني وغالبًا ما أجد أطفالًا آخرين لم يدخلوا بيوتهم بعد كانوا يلعبون الكرة على ضوء أعمدة النور في الشارع القريب، إما فيما بينهم أو مع أقرانهم من حي حمزة ويتفرقون مع أذان العشاء...

ألِفت المدينة وعرفت دروبها ومرت فيها الأيام كالساعات حتى نسيت أن لي أهلًا آخرين في تازة، مع أني كنت أتذكرهم من حين لآخر لما أفرح بشيء جديد أعرف أنهم لم ولن يحصلوا عليه، وأحيانًا يغلبني الحنين إلى الجدة وإلى أقراني وإلى رزيقة التي كنت أعتبرها مثل أختي لكثرة ما كانت تدخل بيتنا وتساعد جدتي، وأعشم نفسي أني سأزورهم يومًا.

ودارت الأيام، وطويت السنون وتغيرت في طبائعي أشياء كثيرة إلا حب السرقة وعشق النشل وانتظار موعد الانتقام، تابعت الدراسة بمشقة وتجاوزت الإعدادي مع كثير من العناء، وكان قرب إعدادية ابن رشد من الأسباب التي يسرت لي البقاء، فهي لا تبعد عن مدرستي الابتدائية إلا دقائق معدودة، ووصلت الثانوية بشق الأنفس، وتابعت بعض الأشهر في ثانوية الليمون البعيدة من حيِّنا لكن لم أتوقف عن هوايتي المفضلة، بل كانت المدرسة الإعدادية من أماكن التدريب أو المراجعة للأساليب التي تعلمتها، كانت المهمة ليست سهلة وتحين الفرص وسط تلاميذ وأساتذة يقظين، الا انني اعتبرت ذلك تحديًا إذا نجحت فيه يكون ما بعده أيسر، أنا على علم بأن أشد الناس يقظة هم أهل التعليم، وهم أكثر انتباهًا ورقابة، وأحكامهم على التلاميذ عادة لا تخطئ، وليس خداعهم بالأمر الميسور.

طول سنوات الدراسة كنت أصاحب الأذكياء منهم، ولا أمشي مع المشاكسين إلا قليلًا حتى لا أجلب الأنظار نحوي، أفضل الظل دايمًا ولا أعشق الأضواء، الليل أخفى للويل كما يقول المثل.. وكنت أضرب ضرباتي الخاطفة في غفلات الناس وهدوء الحركة وخصوصًا عند الخروج من المؤسسة والتعب وبدء الظلام... لا تظنوا أن أحدًا لم يشك في أمري.. هذه من المستحيلات.. لكن التهم كانت تسقط لعدم كفاية الأدلة وسرعة إخفاء المسروق، وكانت خطتي التي لم تخطئ ابدأ أن أنظر في وجه الذي يتهمني وأقول له بهدوء وبصرامة

المتحدي: أقبل أن تفتش جيوبي وتفتش محفظتي، لكن إن لم يجدوا شـيئًا أصـفعك صـفعتين أمام كل هؤلاء.. إن قبلتَ التحدي قبلتُ التفتيش)، لا أغامر بالسـقوط في فضـيحة أخرى ولم تخِب خطتي ولا مرة، بل كانت سـبب نجاتي من التفتيش، لأنه لا أحد يغامر بصـفعتين من أجل عشـرة دراهم أو عشـرين وإلا كان أحمق، مثل ذلك الغبي الذي اسمه عربات أغبى تلميذ رأيته في مرحلة الإعدادي، رغم عدم اهتمامي بالدراسـة كنت أفضـل منه تحصـيلًا وكان همه مراقبتي ومتابعة تحركاتي، وكان جزاؤه صفعتين حارتين تركت خديه تلمعان وباء هو بالسـرقة بعد أن قلت لهم فتشـوه هو أيضًـا وقبل التفتيش لبراءته، لكن لم يشـعر أني لما كنت أتشـاجر معه حول اتهامي خبأـت في جيبه المسـروق قبل أن يسـتفحل الأمر ويجتمع الآخرون، نـال جزاءه وأكثر مع أني أشـفقت عليه لأنه كان بريئًـا وندمت، لكن قلت في نفسـي (يسـتاهل، دور عليها) يا عربات إن مشـواري لا يسمح بالأخطاء ولا الندم ولا العواطف، خصوصًا وأني خططت لمستقبلي بشكل واضح.

محاولات في الطيران

بدأت التجارة مبكرًا وأنا في الإعدادي، وكانت بضاعة بسيطة أشتريها من هذا وأبيعها بفارق بسيط أيضًا لذاك، وكنت كلما تمنى أحد زملائي شيئًا بحثت عنه حتى أجده له وأربح منه، قميصًا أو لعبة أو حتى بطاقة، أو صورة لاعب، أو قبعة، أو دفترًا وقلمًا.

حتى اشتهرت بالبزناس والطلبات كانت تصلني حتى من الأباعد الذين يدرسون في نفس المؤسسة، لا أزعم أني كنت أكسب المئات أو الآلاف أحرى الملايين، إنما تجارة خفيفة اعتبرتها ستارًا وواجهة جميلة أمام الجميع خصوصًا أمام عمي بلقاسم، وكان القصد ألا يستغرب أحد ويتساءل عن رواج المال في يدي، وكيف أعيش في لعشايش لكن جيبي دايمًا فيه مصروف يومي يكفي لأسبوع، وكانت أول خميرة حلال منه ومن خالتي خدوج في يوم عيد ثم احتفظت بكل درهم يدخل في جيبي من عمي بلقاسم وغيره، وصارحته منذ البداية أني سأكون تاجرًا كبيرًا في المستقبل، لكن تجارتي غير تجارته فكان يضحك ويدعو لي.

بعد ثلاث سنوات معهما، جاءت فرصة ذهبية لاستقل بنفسي، في إحدى ليالي الصيف وأنا عند عمي قدور رأيته مغمومًا ولا يتكلم كثيرًا، فظننت أنه لا يريد أن أكون معه تلك الليلة فإذا به يبادرني:

-يوسف كنت محتارًا في أمر، لكن وجدت الحل إن قبلت.. أنت الآن رجل.

-أي أمر؟ وأي حل يا عمي قدور.

-كنت ذكرت لك أني سأسافر إلى سطات إلى دواري في بني مسكين لقضية خاصة .

-نعم .

-عليَّ أن أسافر هذا الأسبوع، وأنا لا أدري كم سأبقى هناك ربما شهرين أو ثلاثة، ولا أريد أن أفقد هذا المحل ولو تركته وعلم صاحب المحل ربما لن أعود إليه مرة أخرى.

-وأين المشكلة وأين الحل؟

-أريدك أن تأخذ المحل، فهو رخيص ولن تجد فرصة كهذه بدل أن تسكن عند خالتك خدوج في تلك العشة.. وأنت كما علمت تبيع وتشتري.. إذا عدت فسأجد المحل ولن يضايقني وجودك معي، وإن لم أعد فأنت الرابح.. محل كهذا لن تجده بمثل هذه القيمة، المحلات في حي حمزة غالية.

-المهم أن تدفع ثمن الكراء لذلك العجوز وإذا سـألك عني فقل له سيرجع .

-وكم ثمن الكراء؟

50 -درهمًا .

-طيب هل هناك مصاريف أخرى؟

-لا تحتاج غير الكهرباء وهو قد تبرع بها لي؛ لأن المحل ليس فيه سوى مصباح واحد ولا أظنك تحتاج غير ذلك .

-طيب سأنظر في الأمر .

-لا تنتظر طويلًا أنت الوحيد الذي أثق به هنا، وأعرف أنك تحتاج لهذا المأوى، وهذا على كل حال أفضـل من الكوخ الذي تعيش فيه.

-طبعًا طبعًا ... لكن أنت تعرف لم أجرب كراء من قبل، والتجارة ليست مدرة دايمًا .

-هذا يدفعك إلى العمل والحركة أكثر وهنا أنت آمن من كل شـيء من البرد ومن الحر ومن اللصـوص، ويمكنك أن تترك أغراضك وتسافر كيف شيت .

-فعلًا عرضك مغر ٍ

-المهم غدًا صباحًا سأعطيك نسخة من المفتاح، وسأخبر صاحب المحل عنك وهو على كل حال رآك مرات عديدة عندي هنا، سأتحدث معه حتى يقبل وجودك وأخبره بسفري دون ما أنا عازم عليه لأني لا أضمن الأحداث .

جهز أمورك لتعمر المكان لأني لن آخذ أغراضي كلها، بل أترك لك قنينة الغاز الصغيرة وبعض الأواني حتى تستطيع على الأقل أن تشرب الشاي .

-طيب إن شاء الله سأمر عليك غدًا صباحًا على الساعة الخامسة .

-نعم أنتظرك غدًا ..

شعرت أن الباب انفتح لي على مصراعيه، لا شيء أفضل من الخصوصية لسارق محترف أو حتى هاوٍ.. أدخل متى أشاء وأخرج متى أشاء، لا أُسأل عن مال ظاهر ولا بضاعة ما أصلها، ولست بعيدًا عن لعشايش، يمكنني أن أزور عمي بلقاسم وخالتي خدوج كل يوم، وسوق الثلاثاء أراه من هنا وأرى قوافل العربات التي تجرها الأحصنة، ذهابًا وإيابًا تقطع ملعب الكرة الذي بين حي حمزة وحي بويقشار من طرفيه، كما أرى من هذا المحل الحمالين يتسابقون، يحدوهم الحسد وتأزّهم الأنانية أزًّا مثل أغلب التجار.

من هنا يكون انطلاقي، أستيقظ بعد أن أشبع نومًا، أشرب كأس شاي يفتح الطرق السيارة في دماغي وتتحرك الدورة الدموية على سكة مستقيمة، وأقوم بتسخينات في الطريق وأُنفذ التكتيك.. سأسميها عملية المنشار أو آلة الحصاد، أحصد في الاتجاهين، إذا أقدمت أكلت وإذا أدبرت أكلت، إذا كررت أخذت وإذا فررت أخذت، إذا هجمت رجمت وإذا انسحبت سحبت.. يدي السحرية لا تملك إخراج الأرانب من القبعة السوداء، ولكن بعد تحريك أناملي، يكون ثمن القبعة والأرانب دافئًا في جيبي..

لم يكن من الصحيح ترك الأمر يطول ويضيع، فأجبت عمي قدور بالقبول، وقلت له بأن يذكرني لصاحب المحل، ويقول له: (أني سأدفع له الإيجار بدلًا منك في غيابك) هكذا يطمئن ولا ينكر وجودي هنا.

تجربة التحليق في الفضاء

بعد أسبوع سافر عمي قدور ولم يخبر أحدًا وكان أعطاني نسخة من المفتاح، وترك كل متاعه وأواني إعداد الطعام والشاي، غادر ولم أملك أن أقول لأحد أني أصبحت صاحب محل، وانتظرت فرصة أخرى لم أكن أتوقع حدوثها، لكن جاءت مثل السمن والعسل فقد سافر عمي بلقاسم وخالتي خدوج إلى الرباط لغرض العلاج، لم أعرف ما سبب المرض، ولكن رجوت من الله أن يجعل الشفاء لها حليفًا وأصابني من ذلك ذعر، ما هذا المرض الذي نحتاج أن نسافر أكثر من أربع مائة كيلومتر لنتداوى منه، وودعتهما بعد الفجر في بدايات الخريف وكنت عزمت على ترك الدراسة نهائيًا، ولكن طاوعت الخالة حتى لا أزعجها، خصوصًا بعدما علمت بقرب سفرهما، أما الآن حان الوقت والفرصة مواتية.

كنت أتفقد الكوخ نهارًا وأحيانًا ليلًا أقوم بجولة سريعة وأزود الدجاج بما تيسر من خبز ونخالة، وأرى إن كان هناك بيض أجمعه ثم أذهب إلى محلي الجديد .

لم أكن أدري كم ستدوم رحلة العم والخالة، لكنها أيام عشتها بطولها وعرضها وانطلقت أجرب جناحي، وأمرن أناملي، وأمر في

الطرقات مرور كاسـح ألغام، ومكتشـف مطبات، كأني أعدُّ مكان الحرب، لبدء دوران الرحى، كنت أذرع بركان طولًا وعرضًـا شـمالًا وجنوبًا من حي شـراعة إلى حي ورطاس، ومن هناك مرورًا عبر لمحال وأحياء سالم ولبني الجديد إلى الموقف وأحيانًا من السوق الأسبوعي، ثم دوار الميكا ومنه إلى الوادية إلى دوار جابر.. أمشـي في كل اتجاه وأحفظ المسالك والدروب، وأعرف السدود والكمائن كأن بدء ساعة الصفر وشيك، وليس لي إلا أيام ريثما يعودان وتتقيد الحركة.

الحرية والخصـوصـية، هذا ما كنت أبحث عنه، لأدير الآلة، والتي كادت تصدأ من قلة الدوران، لن أضيع الفرصة، ولن أفرط في النهزة، وعند رجوعهما بالسـلامة والعافية أهدئ اللعب، وأبرمج المحرك على وتيرة رتيبة، لا تزعج أحدًا، ولا تثير فضـولًا، ولا تنكش تساؤلًا ولا استفسارًا ..

أنا الآن أبيع وأشـترى ولي بعض الدخل وإن كان متواضـعًا، ولي سلعة أدور بها بين أماكن معروفة، بالقرب من بعض المساجد أحيانًا وأحيانًا في الشارع وأحيانًا قرب السوق المغطاة والموقف.. من يعرفني الآن يعرف هذه التجارة التي أكتسب منها، والتي ليست عندي سوى واجهة جميلة وجذابة للمشروع الذي سترته في طي الجهالة، وبالغت في ستره حتى تنتظم لي الدرر في سلك واحد.

كنت أقوم بتجوالي صباحًا وأقارن بين البؤس الجاثم على تلك الأكواخ في لعشايش، وبين فيلات غير بعيدة فيها أشجار ومياه، بين

الضـــيق الـذي يكابـده هؤلاء والعيش وســـط الأشـــواك وإطارات الســـيارات مهددين بخطر النيران في كل وقت، وهؤلاء الذين رفعوا أسوارهم تتدلى منها أشجار (اللواية) الخضراء، وأشجار مثمرة أخرى وأعشـــاب شـــبعت الماء واخضـــرت، كما أرى الحياة غير بعيد تعج بالناس، مبانٍ كثيرة بدأت تكتســح أطراف المدينة.. لم يكن يعجبني ذلك الفرق الشـــاســـع بين هؤلاء وهؤلاء.. وهذا ما زاد في عزيمتي على المضي فيما أريد..

لا أستطيع تعديل الكفة، ولا رفع الفقر، ولا طاقة لي بالمواساة وليس لي فيها رغبة لما رأيت من قســـوة النـاس.. وعنـدي أنهم لا يستحقون سـوى الذي أعدُّه لهم، والسـكة الآن محماة، ولن يوقفها شيء.

الطيران الحر

لا تسألوني لماذا لم تتُبْ وتتوقف عن السرقة وقد قيَّض الله لك أسرة جديدة تعيلك، وأصبحت تبكِّر إلى السوق وتعمل! قد شرحت لكم مبدئي؛ كنت وما زلت عازمًا على المضي في مهنتي الشريفة إلى آخر العمر.

أحببت هذه المهنة أو يمكن أن أقول إني أصررت عليها لجاجًا، بعد أن ضربني ذلك الكلب، وكان إصراري يزيد يومًا عن يوم كلما اقتربت من زبون بعد نشله، ووجدته يدعو عليَّ دعوات لا تستحق نصف المبلغ الذي سرقت منه.

"قطع الله يديه ورجليه ."

" جمَّد الله الدم في عروقه ."

"سلَّط الله عليه كلاب الأرض."

" أكل بها سمًّا زعافًا وجمرًا في بطنه."

" شُلَّت أنامله وأطرافه ."

كل هذا لأَنِّي أردت أن أكل من عمل يدي كسارق شريف؟

كيف تريدون بعد هذا أن أتوب أو أرحم أحدًا.

أنا أيضًـا كان باسـتطاعتي أن أدعوَ على من ظلمني، لكني لم أفعل، لم أدعُ على أحد من قبل، حتى ذلك الكلب لم يلهمني الله أن أدعو عليه وقد أعمل فيَّ يده .

لكني خبأت له أسوأ ما في قلب بشر، وادخرت له ما لو شرحتُه لكم لطالت كآبتكم منه، ولَاشمأزّت نفوسكم من بشاعة التخطيط والتنفيذ.

كنت وما زلت أرى الدعاء حيلة العاجزين، وعزاء المستكينين وكان ذلك يزيدني ثقة في مشواري ويقويني فيما أريد، وأضحك باستهزاء في نفسي منهم وأقول: لماذا لا تدخرون دعواتكم على من يسرقون الملايين؟

كنت أراقب عن كثب فأرى الشرطي كل يوم يسرق جهارًا نهارًا، ويبتز سائقي الدراجات والسيارات والشاحنات هو وشريكاه في الجريمة، والكل يعطيه خفية، وهو يضحك ويحييه تحيةً حارةً بعد أن قبض منه الإتاوة ثم يتركه يمضي، يغمغم بدعوات عليه كغضب الخيل على اللجام.

لماذا لا تدعو عليهم بصوت عالٍ؟ وتجابههما بدعائك أيها الجبان، لماذا أعطيتهم أصلًا؟

ألا قبَّحكم الله، وزادكم ذلًّا وخزيًّا، ووالله، لا ولن أرفع عنكم يدي حتى أشفيَ غليلي منكم؛ ظالم على ظالم .

أما ذلك الكلب فلي معه شأن آخر .

احترفت السرقة وأصبحت خبيرًا بها أصبح سوق الثلاثاء ملعبي الأكبر وكان سر بقائي هناك دون ان ينكشف امري أني كنت أبكر للسوق، وأول من تقع عيني عليه وأعرف أنه سيكفيني ذلك الأسبوع أو الشهر كنت أبادره قبل أن يدخل المحترفون الآخرون ثم أخرج مباشرة، وأعود إلى الموقف مكاني المفضل لأشرب قهوة الصباح هناك مع قليل من الحرشة ثم أعود إلى المحل بعد أن أقوم بحملات تنظيف خفيفة في طريقي .

أمر على محطة المسافرين في الحافلة صباحًا، كانت هذه نوع من حرب العصابات، هجوم سريع ومركز ثم انسحاب دون خسائر، وكنت أغير مواقعي في كل مرة ولا أعتاد مكانًا إلا ببيع أو عرض وكنت أحيانًا أجد أشخاصًا يعرضون أشياء غالية بثمن زهيد، أعرف أنهم سرقوها فأشتريها وأعيد بيعها بربح ولو قليل، كان الغرض أن يشيع عند من يراني في تلك الأمكنة التي أعتادها أني أبيع وأشتري، تاجر متنقل، وكان أهل لعشايش يشترون مني أي شيء بل ويطلبون مني أن أجد لهم بعض الأغراض التي يبحثون عنها وكانوا يتَّكلون علي بحكم كثرة حركتي لأقضي لهم ما يريدون.

كنت أسرق كل شيء، الأحذية الرياضية، الأقمصة، وما وجدته في طريقي حتى الكتب التي كنت أقرأها والجرائد والمجلات وبعد قراءتها أبيعها، طبعًا كان تخصصي هو نشل الجيوب وتخفيف الحمل عن أصحابها، السر الذي حافظت عليه هو التنقل الدايم وعدم تكرار العملية في نفس المنطقة، إلا سوق الثلاثاء فهو مكان العمل الرسمي، وبحكم حجمه الكبير فكنت أقطعه طولًا ولا أرجع إلى الوراء إلا والحصيلة مرضية، وما غامرت في الرجوع مرة أخرى.

كل ما فكرت في الرجوع تذكرت تلك الجريمة التي وقعت علي، أو أتذكر زملاء وقعوا في نفس الفخ، فخ الطمع، أن يسرق السارق ما يكفيه لذلك اليوم، لكن شهيته تزيد لما يرى من كثرة الأموال التي تفيض عن أصحابها فيغامر، لكن يقبض عليه، ويكفي أن يصيح أحد في السوق: (سارق اقبضوا عليه) فتكون نهايته بعد الضرب والتنكيل بين أيدي الشرطة، التي عادة ما تنقذه من المذبحة، وهذا المصير حلفت ألَّا أعود اليه، وكلما مر بخاطري ما يحصل للسارق حين يفتضح أحاول أن أعرف كيف وقع في المصيدة فلا أجد تفسيرًا سوى أنه لم يشبع فأقول (يستاهل، دور عليها) ثم لا أتردد أبدًا وأمضي في طريق أسقي شجرة الكراهية لذلك الكلب أسقيها بالتنقيط اليومي الذي يبقيها قوية ويزداد حجمها.

قد تستغربون لِمَ بقي الحقد في صدري مع مرور السنين؟ ولمَ لَمْ تهذبني القراءة، ولم تعظني عن طريقي ولا عن ثأري، بل زادتني

تمســكًا وتعنتًا، أقول إني أدركت بالقراءة أنواعًا من اللصــوص لا تصــل إليهم يد الشــرطة، وعرفت بالمطالعة كيف يســرق الكبار ويُنعتون بالاحترام والإكبار، وكيف تُبنى القنوات من جيوب العامة لتصب في جيب واحد، أو بعض الجيوب، والنَّاس راضون ويصفقون ولا ترتفع عقيرتهم إلا حين أمرُّ بهم أنا وأنظف جيوبهم، وأريحهم من ثقل دراهمهم .

لا لا، لن أتوقف، أنا نويت نية جازمة، وعزمت أن استمر، ولن تكف أناملي عن جني ثمرات خزائنهم، لا شــيء يوقفني عن الســرقة ولا شيء يردني عن هذه الكنوز المتوفرة .

كل مدينة بركان ســوق لي، وهي كافية أن تســترني عن أعين الرقباء، وسأختفي بين دروبها كالملح في الماء، وأتسلل بين أزقتها تسلل النسيم والهواء، وأمارس هوايتي المفضلة التي هي أكل عيشي، ولست بعد هذه السنين عازمًا على أن أغير طريقي..

صيد ومصيدة

هذا كان حالي إلى الأسبوع الماضي، بينما أنا أستمتع بمحفظة أحد أصحاب الكرافتات الراقية، وقد سرقتها في أقل من لمح البصر وتحسست أنها سمينة ونظر في عيني بعد أن أحس بي ثم ابتسم ومضى، ولو قبض علي حينها لكانت بهدلة أخرى خصوصًا في ذلك المكان العام، أو كان ذلك اليوم الجزء الثاني من تراجيديا السارق، لكن ربك ستر.

خرجت مسرعًا من سوق عين السلطان، لعلمي أن الشخص إذا كان مهمًا وله معارف فإن الشرطة ستجمع كل السراق، ولا أشك أن يكون أحدهم رآني، لأن الزبائن السمان تكون أعين النشالين عليهم منذ دخولهم إلى المكان، إلا إذا ذهل عنهم أو عرف الشخص بأنه رجل أمن فيتحاشونه!! اخترقت جهة البيع بالجملة، ثم منه عبر حايط مهدم بأطراف رحبة المواشي والدواب، ثم خرجت في اتجاه حي القدس وبالضبط وراء ساحة الإعدادية، ذهبت إلى ركن وفتحت المحفظة فوجدت فيها خيرًا كثيرًا فقلت في نفسي: (هذا سارق أكبر مني ومال حرام قد حلَّ في يدي فصار حلالًا)، ثم أزمعت الذهاب إلى مطعم فاخر أكل فيه شيئًا لذيذًا.

دخلت واخترت مكانًا مطلًّا على العالم الظالم وطلبت ما أريد وبقيت أنتظر الأكل، ولم أشعر إلا وأنا أسمع شخصًا على الكرسي الذي وراء ظهري مباشرة يتحدث إلى شخص آخر ويقول له:

- هل تعلم أني سرقت اليوم؟!

- أحقًّا سيدي العميد؟

- ورأيت اللص ...

- أخبرني عن المكان الذي سُــرقتَ فيه، وأنا أحشــر لك كل لصوص المنطقة..

- لن تجدوه بينهم! قلت لك أنا وحدي من يعرفه، أعتقد أنه هو الســارق الذي اشــتكى منه كثير من الناس من غير أن يقبض عليه ولا مرة واحدة، ليس له شــريك ولا معاون ولا رئيس ولا فرقة وليس لديه ســوابق؛ إنه نســيج وحده، أذكى ســارق عرفته مدينة بركان.

- إذن أخبرني به وبمكانه أحضره لك مقرونًا في الحبال.

- لا لن أخبرك به ولا بمكانه وإن كان سرق كل راتبي .

- تقول ذلك وتضحك؟ ألم يجد غير شخص شريف مثلك ليسرقه! قبَّح الله سعيه، الله...

- لا تدعُ عليه، ربما سرق ليأكل أو ليعيل أسرة، أسرة فيها أم وإخوة، أنا وأنت لدينا راتب ومدخرات، أما هو فسرق لهذا اليوم ما يأكل، وربما لن يجد ما يأكله غدًا.

- أتجد له الأعذار سيدي العميد وقد تركك نظيف الجيب؟

- قلت لك رأيته وقرأت في وجهه الحاجة، وعرفت يقينًا أنه سرق ليأكل! أما أنا فيكفي وجود زميل مثلك يقرضني مصروف العيال..

- لك نصف راتبي أيها العميد وإن شئت ثلثيه، وإن شئت كله..

- لا لا، وبارك الله لك في مالك، هيا بِنَا حتى لا نتأخر، فقد قضينا جوعنا .

- هيا.

ثم وقفا ليغادرا المكان أما أنا فتسمَّرت في مكاني، وكدت أشرق بالماء الذي أخذت منه جرعة أبلُّ بها ريقي، ورجوت رجاءً يائس إلا يلتفت، لكنه وقف أمامي مبتسمًا في اللحظة التي يجيء فيها النادل

بالأكل وحيَّاني ومد يده ليصـــافحني، فقلت في نفســـي: ويلاه قُبض عليَّ، واليوم يوم العصا والمحضر ثم مددت يدي إليه لأصافحه .

وغزا القلب رعب وحياء شديدان فقال على الفور:

- أيهـا النـادل اعتنِ بهـذا الفتى الطيـب فهو الوحيـد الـذي اسـتطعت أن أشـاركه خبزي وخبز عيالي بكل فرح، ثم أردف ويده في يدي: كيف حالك؟ أنت بخير؟ لم أرك منذ مدة.

-آه، هـذا اللفظ الـذي اســتطاعـت حنجرتي أن ترد بـه، وبقيت مسمَّرًا لا أدرى ما أجيبه به، لكنه بادرني قائلًا .

- إذن زرنا، لا تتردد أنا انتظرك، شـــهية طيبة إلى اللقاء، وغادر وهو يقول: أنا في الانتظار...

بقيت متشـنجًا، ورأسـي قد وقف شـعره، وصـار جلدي من الخوف مثل جلد دجاج منتوف الريش، وعادت لي رهبة الواقعة المروعة التي حصـــلت لي بتازة وأنا صـــغير، وأتابع خروجه غير مصـــدق، وأراقبه وأنظر متى يعطي الإشـــارة لضـــابطه أن يعود بـالأكبـال في يـده، أو يطوق المكـان برجـال الأمن ليقبض عليَّ كـأخطر مجرم، لكن ذلـك لم يكن وأخلف ظني، وقطع علي متابعة سيره خارج المطعم قول النادل معلقًا:

- ما دام العميد يطلب الاعتناء بك فأنت ذو حظوة عنده، ولا بد أن نكرمك لأجله، ثم تابع يقول واصفًا: هذا أشرف موظف شرطة عندنا في المنطقة، ولو شاء لكسب الملايين مما يُعرض عليه من الرشاوى والإكراميات والهدايا، وهو يأتي للغداء هنا غالبًا ويلتقي ببعض الزملاء، يبدو أنك أول شخص يزور المحل من غير الشرطة، ولولا أنك من معارف العميد لظننت أنك بوليس سري.

- نعم هذه أول مرة، ثم الجوع يرمي الإنسان في أي مكان كما ترى.

يا ويلتاه ألم تجد غير عش دبابير تعرِّس فيه؟ أأعماك الجوع حتى نسيت أن مطعم روايال معروف للقاصي والداني، أنه مقصود ممن طرف رجال الأمن وقليل غيرهم يأتي للأكل هنا؟ كيف نسيت هذا.

لا مناص من الأكل سريعًا والخروج قبل أن يُكتشف أمري وأكون كمن دخل عريسة الأسد برجليه، ولم أتمم هواجسي حتى دخل ثلاثة ضباط لهم نظرات مثل ملك الموت قال أحدهم للنادل مشيراً إليَّ خفيةً وأنا أتحسس كلَّ كلام: زميل جديد؟

-إنه من معارف العميد !

-اووه ..

انسـدت نفسـي عن الأكل، وتراجعت شـهيتي وجف حلقي، ولم يرُق لي أن أطيل الجلوس هنا ولا حتى أن أبلَّ ريقي ببعض الماء خوفَ أن أشـرق به مرةً أخرى، فناديت النادل أن يجمع آكلي في علبة لأَنِّي - زعمًا- تذكرت شـيئًا مهمًّا ويجدر بي الذهاب بسـرعة، فأسـرع في إعداد ما طلبت وزيادة .

وخرجت مسـرعًا حتى أني نسـيت أن أشـكره، كانت حاجتي إلى الفرار أقوى من رغبتي في ذلك الأكل؛ فالأمان أولى من الشبع.

رجعت دون أن ألتفت ورائي إلى المحل وسـددت الباب وكانت عادتي أن أتركه نصف مفتوح، ووضعت الأكل في ركن وجلست على أريكتي أسـتجمع أنفاسـي وألتقط مشـاعري المبعثرة وأخرجت المحفظة أنظر فيها.

لأول مرة لم أسـتمتع بعملي ولم أفرح بِغلّتي رغم أن المبلغ كان محترمًا، بقيت أنظر إلى الأوراق النقدية وكأنها أوراق فقط لا قيمة لها، وتضـاءلت أمامها قيمة كرامتي التي شـعرت أنها أقل من تلك الأوراق.

نعم لقد زهَّدني في نفسـي وجرَّني من أنفي بفعله ذاك: أيبلغ إنسـان هذا المبلغ من الكرمِ والشـهامةِ حتى يترك لي راتبه ثم يعتبر ذلك مشاركة مني في خبزه؟

أيبلغ هذا موظف في الشرطة؟ وعميد أيضًا؟!

سـلطة وقوة، وحق وكرم؟ جاه وسـطوة، وشـهامة؟ صـولجان وعصا من حديد، وعفو وإحسان؟

والمصـيبة أنه صـافحني بيده كأنه يقول: يا صـغيري اقبل مني تلك اللعاعة.

نعم صغرت أمامه ورأيته عملاقًا شامخًا يمر من فوقي يتحاشى أن تدوسـني قدمه وقال لي بلسـان الحال: دونك مأدبتي كل ما اشتهيت .

فقدت رغبتي في ذلك المال وفي ذلك الأكل، وجلسـت طويلًا أتأمل حالي وحاله حتى أخذتني سِنةٌ من ثقل ما حصل لي ولم أُفِقْ إلَّا على صوت أذان العصر.

ماذا فعل بي ذلك الرجل؟ لم يقل لي إن السـرقة شـيء فظيع، لكنه أوصـل معنى الشـناعة كاملًا، ولم يقل إنها حرام، لكن جعلني أزهد في ذلك المال وأسـتقذره حتى أني لما أفقت اشـمأززت من جمعه مبعثرًا على الأرض، وقد سقط من يدي لما استثقلتُ نومًا.

لم يصـفعني كما فعل ذلك الكلب، لكن صـفعته توجهت إلى كرامتي لا ليُهينَها بل ليعاتبَها وإلى شـخصـيتي لا ليحطمها، لكن ليأخذ بيدها، ولم يدعُ عليَّ لكن أحسـسـت أنه دعا لي وفي قلبه شـفقة وفي نفسه أمل.

شـــعرت أن عليَّ أن أحييه تحيةَ تقدير وإجلال على بلاغته في الوعظ رغمَ أنه لم يكن إمامًا ولا واعظًا، وأحييه على كرمه البالغ مبلغه.

لكن كيف لي أن أبلغ شأوه؟ كيف أسمو سموَّه من الحضيض إلى السموق؟

هناك خطوات لا بد منها: أرى نفسي في مرآة، وأدخل في محراب التأمل الذي لم أعرفه من قبل، وأعطي لنفسي فرصة اكتشاف ذاتها، وأن أفكر قليلًا في مشواري وفي طريقي وفي عزمي ونياتي، أفكر في حياتي، أفكر في علاقاتي ومعارفي وأفكر في عملي وحركاتي، أفكر في صحتي، في كل شيء... لا بد أن أقف مع نفسي وأحادثها، أين أنا وماذا أريد؟ وهل بلغت مما أردت شيئًا، أم أنا أدور مثل الحمار في البيدر، لا تبنًا أكلت، ولا زرعًا درست، ولا علفًا شبعت منه.

بعد ثلاثة أيام لم أغادر فيها مأواي، لا آكل إلا ضرورة، ولا أنام إلا غرارًا، حتى قلقت خالتي خدوج وأوصت عمي بلقاسم أن يسأل عني وعن سبب غيابي؛ ظنًّا منهما أني مريض أو حدث لي مكروه.

فطرق الباب ففزعت من طرقه ولم يعد قلبي إلى مكانه حتى سمعته: يوسف، أنت هنا؟

-نعم يا عمي، لحظة أغير ملابسي وأفتح الباب .

لملمت تلك الأوراق المالية بسرعة ووضعتها في المحفظة ووضعت البطاقات أيضًـــا، ثم أخفيتها تحت الفراش، ثم فتحت الباب وأنا أتظاهر بمعالجة ملابسي فحيَّاني، وقال:

-ما هذه الغيبة؟ هل نسيتنا؟ أم كنت مسافرًا؟ أم مريضًا؟

-لا يا عمي بلقاســم كنت مشــغولًا قليلًا، ذهبت قبل أمس إلى مليليه أشتري بعض الأغراض، وبقيت في الناضور مع أحد الأصدقاء وتعبت من السفر لذلك لما رجعت أخذني النوم..

أحس عمي بلقاسم بأني أخفي شيئًا، وله فراسة المؤمن التي لا تخطئ، لكنه لم يرِد أن يستفسر أكثر ثم أردف: ننتظرك في العشاء، أخوك يسأل عنك.. أنسيته؟

-لا يا عم لا تقل هذا كيف أنساه؟ سآتي إن شاء الله للعشاء أما الآن فعندي مواعيد لا بد من الوفاء بها.

لأول مرة يقول لي عمي بلقاسم: (أنسيت أخاك؟) شعرت فعلًا أن لي أسرة حقيقية، وإن كان هذا الأخ الصغير جاء بعد طول معاناة للعم والخالة خدوج، ولا أدري كيف أني يوم ســافروا إلى الرباط من عدة ســنوات لم أدرك أن الخالة كانت تريد أن تأخذ بالأســباب لكي يرزقها الله بذرية، وسافرت للعلاج مرتَينِ مع عمي بلقاسم إلى الرباط كانت أول مرة ســببًا أن أنتقل إلى هذا المحل، وفي المرة الثانية بقيا هناك لمدة شهر ما بين العلاج وزيارة الأهل، ولما عادا بعد أيام سمعت

خبر الحمل ورأيت البكاء من الفرح، ورأيت السجود من عمي بلقاسم لله على أن رزقه بعد يأس، كانت أيام قلبتْ أفكاري وأعادتْ بعثرة الأوراق عندي وهزت حتى تخطيطاتي التي رسمتها بعناية، لكن إصراري كان أقوى من تلك المشاعر، واستمررت في ذلك الطريق وها أنا الآن في منعطف خطير ونقطة دائرية، إما أن تكون البداية لحياة جديدة أو تكون الاستمرار في الغي.

سهم العميد كان مصيبًا وأصاب المقتل، وكلمة عمي بلقاسم نزعت السهم ووضعت الضماد فقلت له منهيًا الحوار:

-هل أعدُّ الشاي؟

-لا لا، تركت العربة عند المسجد العتيق لأحد الزملاء وجيت بسرعة أتفقدك وخالتك قلقة عليك.

-سأمر عليها بعد قليل.. كن هانئًا.

ثم ذهب وقد عزمت على ألا أعود إلى تلك الطريق.. وقررت أن أُعيدَ المال والمحفظة لصاحبها، وهذا أول امتحان لي.

بداية التحليق العالي

خرجت بعد الظهر في موعد الغداء فوقفت أمام مطعم رجال الأمن هنيهة ودخلت فقابلني النادل بابتسامة جميلة:

- هل تريد قهوة أم شايًا أم شيئًا باردًا قبل أن تأخذ غذاءك؟

- ماء من فضلك! ثم أردفت على ارتباك مني: هل عادة السيد العميد أن يأخذ غذاءه هنا؟

- نعم، وعادته أن يدخل في هذا الوقت وقد سأل عنك البارحة.

- طيب إذن جيتُ في الموعد.

جلست أنتظره بقلب يتقلَّب، لا. أدري إن كان سيقبل ما أقوله له أو سيعارضه أو يرفضه، لكني مقتنع به وسأمضي فيه بعزيمةٍ تفلُّ الحديد إلى أن يظهر لي غيره. يبقى السؤال هل تكون لي الشجاعة لأتحدث معه أو هل أجرؤ على محاورته دون أن أتلعثم حياءً أو أرتبك خوفًا.

- تفضل! هنيئًا مريئًا .

- شكرًا! بارك الله فيك، قل لي: هل للعميد مكان مفضل هنا؟

- نعم في المكان الذي رأيته آخر مرة .

وما هي إلَّا أن ذهب النادل حتى رأيته يقترب من المطعم، يمشي وعيناه على الأرض وكأنه يتبع خيطًا رقيقًا من نور، لا يرفع رأسه إلا ليحيّ أحدًا، ولا يكثر الالتفات.. عجبًا! أهذا هو العميد الذين يقولون عنه لا يرحم أحدًا! ولا يعرف في الحق أباه؟ أهذا الذي يرتعد منه اللصوص والبوليس في آن واحد، أدركت لما رأيته أن العدل يعطي للإنسان قوة، فتكسبه هيبة، وتكثر حوله الشائعات ما بين قادح ظالم ومادح مبالغ.

ودخل وفي يده جريدة بدا في النظر في افتتاحيتها عند الباب وسلَّم متجهًا جهتي ويقرأ حتى وصل إلى المائدة التي يجلس عليها، سحب الكرسي دون أن يلاحظ أني أجلس قبالته حتى ظننت أنه يتجاهلني لانهماكه فيما يقرأ، ثم استوى على الكرسي ووضع الجريدة مفتوحة على الطاولة لينزع معطفَه ثم رآني:

- أهلًا وسهلًا ومرحبًا؛ لم أنتبه أنك هنا! كيف حالك؟

- أهلًا سيدي! هل يمكن أن أشارككم مائدتكم؟ إذا سمحتم.

- على الرحب والسَّـعة! بكل فرح، تفضـل، تفضـل! اجلس! لا تبقَ واقفًا .

- زادك الله فضلًا .

- أيها النادل النبيل! تعالَ يا بني.. انظر صـــديقي هذا ماذا يشتهي أن يأكل .

- لا، وأشكرك حضرة العميد لا أريد شيئًا جئت فقط..

- لا مناص لك ولا مفر، وإلَّا سـيغضـب العميد، هل يرضـيك أن أغضب؟

- لا.. لا يرضيني طبعًا .

- إذن نأكل ونتحدث... آتنا غذاءنا المعتاد يا بني وشُفْ صديقي ماذا يريد ولا تتأخر علينا!

- إذا كان ولا بد فليكن شيء من الدجاج مع صلطة وبطاطس مقلية، طلبت ذلك خوفًا منه، أما لســاني فجفَّ في حلقي ولم يكن بي شـهية للأكل ولا لبلع لقمة لكن سـايرته حياءً وخوفًا، ثم انصـرف النادل وهو يقول :

- حسـنًا يا سـادة ربع سـاعة على الأكثر ويكون الأكل جاهزًا، هـل تريـدون فـاكهـة عنـدنـا فراولـة، وموز، وتفـاح، وحـب الملوك، وأناناس، وليمون..

- إذن هات لنا خليطًا من ذلك نستفتح به.

- حالًا..

كان رأســي يفور بالأفكار فورانًا ويقول داخل جمجمتي: (ربي وسيدي ماذا أقول لهذا الرجل الذي يزداد شموخًا في تواضعه ونبلًا في معاملته، لم أعتدْ على مثل هذا الكرم من قبل، ولم أعهد مثل هذه المعاملة، أكاد أبكي من التأثر، لكني تمالكت نفســي وأدركت عبرتي قبل اغروراقها، وابتدرته بابتسام فيه كثير من القلق والحياء:

- أيها العميد! لم يُسـخّن أحد عيني قبلك، ولم أذل دمعي من قبل حتى أحرجني كرمك، فأرجو أن تسمح لي بالكلام لأقول شيئًا.

- على رسـلك! فلم أفعل شـيئًا يسـتحق أن يحرجك إلى هذا الحد، وقل ما تشاء غير مادح ولا مُطرٍ.. فلست حمل ذلك.

- شكرًا .

- العفو يا بني.

- سـيدي العميد أنا من سـرق محفظتك من يومين، وها هي كما هي إلا دراهم غداء ذلك اليوم، لم أستطِع أن أصرف منها شيئًا وقد غير تصرفك معي مجرى حياتي، فاستقذرت نفسي واشمأززت من يدي وأناملي وتقززت من حرفتي، وبِتُّ ثلاث ليالٍ أبرم وأحلُّ وأقرر وأعزم وأقول وأعيد حتى استوى ما عزمتُ عليه ورأيته رشدًا، وأتيتك أطلب سماحك وكرمك وأرد مالك الحلال وأشكرك على ما فعلته بي، فما كنت أحسبني أتوب حتى ساقني القدر إليك أو ساقك إلي، تفضل مالك ومحفظتك وما بقي أسدده لك لما يتيسر أمري! تفضل خذ مالك!

بقيت يدي معلقة تنتظر أن يمد يده لقبض محفظته ولم أرفع رأسي في وجهه حياءً منه، فلما استبطأت ردة فعله نظرت إذا هو يمسح دموعه، ويكثر من الحمد لله ثم قال:

- دونك المحفظة وما فيها، واللهِ لن آخذ منها درهمًا، إلَّا البطاقة الوطنية ورخصة السياقة فلا حاجة لك بهما.

- أرجوك سيدي لا تزد في إحراجي أكثر..

- شُفْ يا بني، لما سرقتني ذلك اليوم شعرت بك وشعرت بحقد في تلك اللحظة فأردت أن أقبض عليك، لكن تراجعت، قلت لن أفعل، ولكن سأدعو له فقلت بيني وبين نفسي: اللهم إن كان ما في المحفظة سيكون ثمن توبته فقد وهبته له، ورجوت من الله أن

يقبل هبتي، فلا يحق لي أن أعود فيما وهبته لله، هي حلال لك، ابدأ بها حياة جديدة، إن كانت تفي بذلك وأبقِ المحفظة عندك حتى نخرج من المطعم، الأمر يخصُّنا نحن فقط.

- يا سيدي ...

- أسرع في إخفائها الله يسترك.

سحبت المحفظة وطويتها تحت يدي حتى أن العميد لم يعرف أين أخفيتها، وقلت في نفسي هذا ما بقي لي من حسنات تلك الحرفة: سرعة الأخذ والإخفاء.

أُحضرت لنا خلطة فاكهة لم أذُقْ في حياتي مثله ربَّما لأنه كان حلالًا وعن طيب نفس من نفس كريمة طيبة، وربما تغيرُ نفسي جعلني اكتشف للحياة طعمها الحقيقي، لقد طاب لي كل شيء .

وخرجت من قدر كنت فيه مستورًا، إلى قدر صرت فيه مدللًا، أحسست أني أتمرغ في تراب النعيم، وأمرع في مروجه وأرتع في روابيه، وأحسست بعِظَم المنة عليَّ، واكتسح هذا الشعور كل ما بقي في النفس من عادة السرقة وحب مغامراتها، ورأيتها خسة لا يرتفع صاحبها أبدًا، وذلة لا تزول عن وجهه آثارها، ولن تعود إليه سمة الآدمية حتى يتركها، بل إن السارق لا يحس أنه مثل الناس أبدًا، ويرى أنه منحط حتى وإن لبسَ معطفًا أنيقًا وربطة عنق لائقة يبقى

هو في نفســه أذل من قرملة[1]، وأرخص من ســقط المتاع حتى وإن تسمَّى بأسماء السيادة وتلقَّب بألقاب الريادة .

السارق يده ملطخة بعذرة، ومطلية بأوساخ الناس، ومضمّخة بعرقهم، لا يبقى في وجهه ماء، ولا ينبت له حياء، ولا يعرف معنى الكرامة، ولا تؤثر فيه الملامة، ولا يبلغ فيه الوعظ مبلغه، ولا يأخذ النصح منه مكانه.

الســارق مهانة في مســلاخ آدمي، ورذيلة في إهاب بشــري.. هذه كلمة خذوها عني من تجربتي كســارق محترف، ظل طول حياته يرى السرقة مهنة، ويرى الاكتساب منها شرفًا، دخلتها من باب الاقتيات، وكان ذلك الكلب ســببًا في أن اعتبرها مهنة إصــرارًا وعنادًا وانتقامًا وخرجت منها من باب القناعة، وكان ذلك الرجل الهمام ســببًا في أن أتركها زهدًا وحياءً واعترافًا وتقديرًا له.

[1] القرملة: نبات يطأه الناس.

التحليق الدائري

طفت أيامًا في أبركان أحاول أن أراها بمنظار جديد، وأدور في مسارح جرائمي، وأتردد من حين لآخر على كثير من المغفلين الذين كنت أسرقهم في كل مرة دون أن ينتبهوا لي، وتنزل على قلبي خواطر وأفكار يدور لها رأسي، وأكاد أسقط من هولِها: ترى كم واحدٍ مثل العميد كان يشعر بي وأنا أسرقه وكان يتعمد ألَّا يراني وهو الفطن المتغافل!! كم واحدٍ من هؤلاء ربما يعرف أنني سارق لكن حياءه أكبر من أن يفضحني من أجل دريهمات...!! أعرف أنها مثاليات أفلاطونية لما تغيرت نظرتي للناس، وطغى عليَّ إحساس أن الجميع كان يعرف مهنتي ويدرك تمامًا أن التجارة التي كنت أداري بها سوأتي ليست سوى ستارًا رقيقًا وغلالة مكشوفة. وشعرت بحياء شديد مثل من افتضح أمام الملأ، وعرفت أن القلب تزعزع قليلًا والقناعات انقلبت ظهرًا لبطن، وفكرت في السفر استعدادًا ليوم النقمة الذي أعدُّه للكلب العقور الذي أعيد وأردِّدُ هو من جرعني كل هذا .

عودة النسر الجريح

آن أوان رد الكيل وحان حينُ الكلب، وأرجو ألا يكون القدر سبقني إليه، لأَنِّي أعددت نفسي لأكون له شرَ أقداره، وسيرى الجحيم مما أعددته له، ليس في قلبي مثقال ذرة من شفقة عليه .

سأحطم حياته، كما حطم نفسيتي، وأشغله بجسده، وأعطل حواسه الخمس، لن يعرف طعم الراحة، ولن يتنعم بأكل ولا شرب ولا نوم ولن يستمرئ هناء ولا ظلًّا ولا نسيمًا.

سأجعل الشقاء يركبه بكرةً وعشيًّا .

لا يكفيني أن أفقأ عينيه أو أصم أذنيه، ولا يشفيني قطع لسانه وأطرافه، هذا قليل في حقي، قد غيَّر حياتي كلها إلى سالب، وأدخلني قهرًا إلى قعر المخازي، وساقني إلى أسوأ المساوئ، حملني على أن أقتات من أدران الناس لأكثر من عشر سنوات وأرى ذلك محمدة، أيُّ الناسِ كنتُ؟ أخسرهم أعمالًا وكنت أحسبني أحسن صنعًا.

لو أن إبليس عجن طينتي بناره لما كنت أشرَّ مما فعل بي ذلك الكلب...

سـميته كلبًا وإني أقـدِّم اعتـذاري لكل كلاب الـدنيـا حتى الخسيسة منها والغادرة، فلا يمكنه أن يدركها بمستواه الواطئ.

غدًا أستقل الحافلة إلى تازة، وأنا في الطريق سأراجع كل أوراقي التي حضَّـرتهـا لأنتقم وأزيـد من مخزوني من الكراهيـة، وأقيس منسـوب الحقد وأتأكد أن سـيكون في أعلى مسـتوياته، تبت من السرقة لكن الانتقام لن أتركه.

لا تقولوا: المسـامح كريم، ولا تقولوا لي على الإنسـان أن ينسـى أحقاده القديمة،

أحقادي ليسـت قديمة! حقدي عليه يتجدد كل يوم، قلبي كان مضخة حقد لا تتوقف، ولا تجري فيه إلا دماء الانتقام .

قد قرأت من أجله كل قصـص التعذيب التي مرت على يدي وكثير من مذكرات سجناء أبشع السجون في العالم، وهذا الشيء الوحيد الذي اسـتفدته من عودتي للمدرسـة وكان متعةً لي في الـدراسـة ولم أكن أهتم لغير ذلك، وتركتها ولم أترك مطالعة الروايات والقصص..

لن أعفو عنه حتى يرد لي عمري الدابر وليس بفاعل .

أمام العش القديم

وقفت طويلًا في مدخل ذلك الدرب وأظلم قلبي وتسارعت دقاته ومرت أمامي تلك المأساة وكأني الآن أمام مسرح الجريمة، أسمع بكائي في يده، وأسمع ذلك الجار يتوسل إليه أن يطلق سراحي ويكفَّ عن ضربي، ويتراءى لي صاحب المال بعباءته الرمادية وهو يمسك يده لكي ينزعها عن رقبتي ويكلمه رجاءً وتوسلًا واستعطافًا وهو محكم قبضته ويلطم وجهي، يستمتع بتعذيبي!

رأيتني كطائر صغير مكتوف الجناحين والرجلين وهو ينزع ريشي ويحرقه ويكويني به.

كيف تريدون أن أكون كريمًا مع كلب عقور كهذا؟

الآن زاد غيظي وامتلأت مزادة الانتقام حتى فاضت، وبلغ الغضب مداه، ولن ينقذه مني إلا القدر المحتوم.

الآن أصبحت صقرًا ضاريًا ولي مخالب تترك اللحم بضيعًا والجلد مجزورًا، وقد سننتُ شفرتها وسقيتها عذابًا وجحيمًا.

وقفت أمام تلك الدار التي كنت أسكنها، وتلك الباب التي أسرعت منها تلك العجوز وهي حاملة ساطورًا وهجمت به رغم

ضعفها عليه، وهي تصرخ أيها الكلب العقور اترك ابني! ابني، تذكرت الآن أنها هي من نادته بذلك اللقب ورسخ صراخها في صماخ أذني، فألقاني على الأرض كثوبٍ بال، مغمىً عليَّ، لا أدري ما حصل بعد ذلك، كانت أذناي تلتقطان شيئًا من سب تلك العجوز وتهديدها له والنَّاس يردونها عنه لا أذكر بالضبط ما حدث إلا أني استسلمت لغيبوبة لا أدري كم دامت ولم يكن يهمني .

أذكر خروجي من البيت والعجوز محترقة القلب والعينين، تبعتني طفلة بنت تسع سنين كنَّا نلعب معًا إلى مشارف الدرب تستعطفني ألا أغادر:

-أتوسل إليك بالمرحومة أمك، لماذا تريد الذهاب؟ وإلى أين؟ أرجوك! سأترك السرقة من أجلك حتى وإن أُكرهت عليها لن أعود! هيا ابقَ! العجوز ستموت حسرة عليك!

-عودي إلى بيتك واعتن بها! لن أعود .

-لماذا أنت قاسي هكذا! أسألك بكل غالٍ عندك.

-لماذا تلحين؟ قلت لك عودي لبيتك وكُفِّي عن متابعتي.

تركتها هناك من غير أن أنظر إلى دموعها، وقلت وأنا أغادر: نعم أنا قاسٍ، قاسٍ! ونبتت ذلك اليوم شجرة القسوة في قلبي وتسربت عروقها بين عروقي وسقيتها بدمٍ مليء حقدًا.

لا تحدثوني عن عفو! لا شأن للضعيف بالعفو والصفح، يعفو من يقدر على الانتقام، ويعفو القادر لما يتمكن من خصـــمه، أما أنا فلم أكن كفئًا له في عمري ذلك الزمان، ولا كفئًا في قوته.

مشـيت متأنيًا في ذلك الدرب ثم تذكرت العجوز وأســرعت إلى الباب ودفعته كما كنت أفعل من قبل لأنها لا تغلقه نهارًا، ثم ألقيت نظري حذرًا أن تكون رحلت أو- لا قدَّر الله - رحلت عن الدنيا .

إذا بي أراها أمام بيت غرفتها جالســة كعادتها تغزل صــوفًا بنظاراتها القديمة ثم رفعت رأســها وتفحصــتْ في وجهي هنيهة مستغربة وقوفي عند بابها ولما تعرفني، ثم صاحت صيحة كاد ينشق صدرها منها:

-ابني! ابني!

-جدتي !

وقامت وهي تتعثر في ثوبها وأســرعتُ إليها واحتضــنتني كطفلها وبكينا بكاءً طويلًا بعضـه من الشـجن وبعضـه من الفرح وهي تقبلني ولا تصدق.

-تعالي انظري من جاءنا يا رزيقة!

-من؟ من؟

-ابني يوسف!

-يوسف؟ !

خرجت رزيقة من مطبخ الجدة وكانت تعد شاي العشي وأسرعت وكادت ترتمي في أحضاني لتعانقني لولا تماسكها وتحاملي على مشاعري .

-ما شاء الله كبرتِ يا رزيقة!

-وأنت أيضًا يا يوسف أصبحت رجلًا .

-جيت في وقتك! الشاي ولوازمه يا رزيقة!

-حاضر جدتي!

-اجلس يا بني! كيف أحوالك؟ وصحتك؟ وأين كنت؟ وكيف تتركني يا ظالم وحيدة كل هذه المدة لوحدي، ولا ترسل لي حتى رسالة أعرف أنك حي على الأقل، لولا أن رزيقة تزورني من حين لآخر لهلكت من الأسى عليك والوحدانية!

-سامحيني جدتي، لم يكن أقدر على البقاء في مكان قهِرتُ فيه، ولم ينصرني أحد غيرك، ولولا أنت ربما لمتُّ بين براثن ذلك الجلف.

-لا عليك قد جزاه الله بما يستحق! وأراحنا الله منه.

-ماذا قلت؟ ماذا حصل له؟! مات؟ !

-لا لا لم يمت ..

-الحمد لله أنه لا يزال على قيد الحياة لا يهم ماذا حصل له، لن أتركه ولو وجدته يتعبد في محراب .

- دعك منه وأنس..

- أنسى ماذا؟! قد نقش الجرح في قلبي أخدودًا وكبر حتى صار الجرح ينبض مكانه! كيف أنسى وحشيته ولم يكن صاحب حق ولا مال؟ كيف...؟

-يا يوسف إن الله عادل وقد أخذ لك بثأرك!

-ثأري؟ ثأري نار في صدري إن لم أطفئها ستحرقني! ولا يخمدها إلا أن أسومه العذاب جرعات، وأذيقه الموت سكرات، ولا يموت حتى أسقيه كأس المرارة، وأحقنه بحقن الشقاء، ويرى الموت رحمة ويبأس منها .

-لو بقيت أيامًا أو أسابيع قليلة لرأيت بعينيك ماذا حصل له.. ولكنك تسرعت وغادرتنا، المهم اشرب الشاي، ودعنا منه، ولا تقل إنك جيت من أجله؟

لم أرد جوابًا ولم أشـأ أن أخبرها بشـيء أكثر من ذلك التهديد البارد الذي سمعتْه حتى لا يذهب بحرارة اللقاء، واكتفيت باحتساء الشـاي وأنظر في الأفق المسـتعرض لأفكاري، أرى صـقيعًا وبرودة قادمين يتلوهما أمطار نار وغيوم شـر محدق، سـتكون أيام وَيْل وليالي ثبور عليه، وقلت في نفسـي: لن أمنحك فرصـة الاسـتعداد، سيدهمك الشر دون سابق إنذار أيها الكلب!

وبعد أن شربنا الشاي وتذكرنا ما مضى من حلو الأيام ومرها، وضحكنا وبكينا وتشوقنا وتحسرنا وتأسفنا وتأففنا، عدنا لحديث الكلب وطلبتُ من رزيقة أن تقص لي ما جرى له، فقالت متحمسة:

عند الغداة بعد الفطور مباشرة جيتُ أزور الجدة ككل صباح سـمعت ضـجيجًا وكلامًا فقلت عادة الدرب، وأضـواج الوادي، فدخلت فزاد الصراخ والصياح فخرجنا ورأينا الناس اكتظوا قبالة الجزار، يصـرخون يطلبون الإسـعاف واقتربت والدماء تسـيل على الأرض بكثرة مخيفة، فانسـللت بين الناس رغم منعهم لي إذا بي أرى ذلك الكلب جالسًـا يخور ويئن من الألم وقد قطعت يده، لم أعرف ما حصـل إلا بعد ذلك وكاد يموت لولا أن أحدهم أسـرع إلى يده فربطها ربطًا محكمًا ريثما تجي سيارة الإسعاف، أما هو فكان مصفرًا مروَّعًا هلوعًا ميِّتًا من الخوف .

قصـته مع الجزار كما يعرف الناس جميعًا وعرفنا في حينه أنه جاء ذلك الصباح فوجد أمينًا ابن الجزار، تذكره؟

-نعم، أجبت.. وأردفت: وطلب منه شـيئًا بدين، لكن الشـاب رفض وقال له: اقضِ ما عليك من الديون أولًا، فكثر بينهما الكلام ومع إصـرار أمين ألا يعطيه شـيئًا اغتاظ منه وصـفعه وفي تلك اللحظة، حضـر عمي الكبداني الجزار ورأى ابنه يُصـفع أمام عينيه، وكان في يده السـاطور فلم يقل شـيئًا وصـافح الكلب بيده وأحكم قبضـته ووضـع اليد على الوضـم فقطعها وهو يقول: اليد التي تمتد إلى ولدي في غير حق أقطعها ولو كانت يد أمير.

وتركه يسـبح في دمائه يخور خوار الثور وبقي ينتظر الشـرطة والإسـعاف، هذا ملخص الحكاية، ونُقل إلى المسـتشـفى مع يده المقطوعة لكن تأخر زمان ردها إلى مكانها والمسـتشـفى بعيد والتجهيزات غير كافية والإمكانيات لنقله إلى المسـتشـفى الكبير في مدينة أخرى مكلف، ومن يدفع له هذا كله وهو المفلس المديون ثم إن الحالة صارت في حكم الميؤوس منها.

هو الآن مقطوع اليد من رسغه تلك اليد التي كانت على رقبتك، تمنيت حينها لو أن الجزار أتم معروفه وقطع اليد الأخرى التي كانت تضربك.

ذكرتني بذلك اليوم التعيس للحظات فنظرت إليها إذا هي محمرة العينين تستعد لسيل من الدموع، أحسست بخنق في حلقي وتماسـكت ورأيت الجدة وهي تمسـح عينيها وتقول: لا تذكرينا تلك الأيام يا بنتي ... الله حق وعدل ويأخذ على يد الظالم..

-نعم أردفت رزيقة، كان ينتظرُه الأسوأ، بقي في المستشفى أيامًا، تعفن الجرح، ودخل في غيبوبة من النزف الكثير حتى أشيع أنه مات، لكن عمر الكلب أطول، وبعد معاناة خرج من المستشفى فكانت الشرطة تنتظره!

لما كانوا يحققون في قضيته مع الجزار وسألوا الشهود عنه وجدوا أنه معروف بوحشيته، فبحثوا عنه واستخبروا فإذا به متورط في حوادث كثيرة: سرقة وضرب واعتداء فأحْضِر الشهود فعُرف واعترف..

وظنَّ هو أنه قد أخذ جزاءه لما قُطعت يده ونجا مما سبق، لكن القضايا الجنائية التي كانت ننتظره أدخلته في سلسلة من العذاب أذلت مناخيره، واشتكاه أصحاب الديون، المهم لم ينجُ الظالم بفعلته ولم يُشفَ من علته.

واليوم يعاني من أمراض كثيرة، سكر وضغط وقصور كُلوي، والله أعلم بما ابتلاه ولو تراه الآن لأنكرته، حاله حال الكلب الكلِبِ، قد أُفرد أفراد البعير الأجرب .

إن الله يمهل ولا يهمل.

-صدقت والله! صدقت يا رزيقة! لكن بقي له من حقوقي أشياء لا بد أن استردها، ولا يزال القدر يعد له ويمكر، بقي في مزادتي له الكثير، صبره علي فقط.

-انسَ يا ولدي الله يرضى عليك، وفكر في مستقبلك وتزوَّج وابن حياة جديدة، لا تفكر في الانتقام.

-يا جدتي لو كان ضـربًا فقط لنسـيت، لكنه كان ضـربًا مسـخني به! وغسـل دماغي من كل خير كان فيه، وحياة طيبة ربما كانت تنتظرني، ضـربه لي كان علاجًا معكوسًـا، وسـمًّا زعافًا قتل شخصية الآدمية في نفسي، أصبحت سارقًا محترفًا بسببه يا جدتي!

-بقيت سارقًا يا يوسف كل هذه السنين؟

-نعم يا رزيقة، لم أغسـل يدي من السـرقة إلا من أيام، ولذلك عدت لأسقي طائر الهامة**

-طائر الهامة؟

سـأخبرُك فيما بعد عن معناها، جدتي تعرف القصـة ربما تخبرك هي أيضًـا أما أنا فأحتاج أن أخرج إلى الحارة لعلها تتذكرني، فقد خرجت منها منذ أكثر من عشـر سـنين ولم أرجع منذ دلك اليوم، أريد أن أسـتعيد ذكرياتي وأسـلم على بعض الأصحاب إن وجدتهم أو إن عرفتهم وعرفوني.

انقضاض خاطئ

كان هدفي أن أجمع معلومات إضافية عن صاحب ديني (الكلب) لأجزيه الجزاء الأوفى، وكنت رتبت ترتيبًا محكمًا لأجره في خيوط من حرير لا يشكُّ إلا أنه مدلل فيها حتى يتدلى من تلك الخيوط في بيت العنكبوت، وأفعل به ما تفعل الرتيلاء بالحشرات؛ تلفها بخيوطها من غير أن تقتلها وتنفثُ فيها سمًّا يتركها حية، لكنها حياة مع وقف التنفيذ، حياة بشلل تام، وتذوب أحشاؤها وتمتصها؛ أو تزرع فيها بيوضها وتتركها تنمو وتفقس داخلها، وتأكل من أحشائها وهي حية تسمع وتحس وتتألم ولا تستطيع حركة ولا تنفيسًا.

المهم أنا عازم على أن تقع عيناي في عينيه وأنا أنفث السُّمَّ في جسده، سمٌّ يبقى ما بقي العمر، ينخر جسمه كل ثانية وهو يصيح من غير أن يعرف الراحة من الصياح، ويقطِّعه الألم من الليل إلى الصباح، وفي النهار شغل للداء عليه، يظل يعوي كالكلب ويبيت يئن كالمفلوج، وبعد ذلك ينتظره الخازوق النفسي، أخذه في سلسلة من تعذيب معنوي؛ أحطم كبرياءه وأقطع أنفه وأذل أنفته. أتجول به في كرسي متحرك وهو مشلول اليدين والرجلين يسيل لعابه، ولا ينغلق فمه، ولا يتوقف نزعه وتطول حسرته وسكرات موته، وفي كل مرة

أجلس قبالة عينيه لينظر التشفي في عيني من غير أن يقدر على استعتاب أو استعطاف أو طلب عفو.

خرجت وفي نيتي أن أشرع بذلك خلال أيام لأَنّي اشتقت إلى أهل الحارة والحارة نفسها، لا بد أن أمشي بين أرجائها، وأرى أهلها وناسها.

وأنا على الباب لم أغلقه بعد، وقع بصري على رجل يمشي على عكاز وفيه ضلع ويده مقطوعة، وما إن تلاقت العينان وكان في الجهة المقابلة يفصل بيننا الطريق إذ نظر إليَّ، وقال بصوت أسمعه فيه سخرية وخبث: عاد جرو الحارة، عاد اللصُّ!! فثارت الدماء في رأسي فقلت على الفور: عدت إليك أيها الكلب العقور!! فاستشاط غضبًا وهرول إلي بعكازه فأقبلت نحوه، وأنا أغلي غلي المرجل، وقد امتلأ وجهي دمًّا من شدة ما أجد عليه، وقصدت قصده لأفتك به، ولكن لم أصل إليه حتى مرَّت دراجة نارية في سرعة رهيبة رفعته إلى السماء وألقته أرضًا، ومضى صاحب الدراجة هاربًا، خوفًا من مغبة فعلته .

خرج الناس وصرخ من صرخ واتصلوا بالإسعاف وأنا أنظر إليه حائرا!

وتراجعت إلى الباب وأسندت كتفي إلى الحائط ولما يهدأ الغليان بداخلي، وبقيت واقفًا أستغرب الأقدار كيف تبعدني عنه، لم

أكترث لـه حبـة خردل، طلبـت من الله ألا يموت، ليس رحمـةً بـه ولا شـفقةً عليه، إنما سـألته ذلك لأمضي فيما عزمت عليه وألا يحرمني لـذة الانتقام منه، وقلت: لعل ذلك خير؛ حتى أخطط على مهل وقد كاد يفوت علي ذلك باسـتفزازه ما نويت فعله، وكان ذلك درسًـا لي في إدارة الصراع.

حُملت الجيفة إلى المسـتشـفى وفيها رمق، وبقي هناك يومين غائبًا عن الوعي، قد انكسـرت بعض أضـلعِه وسـاقه، وسـال منه دم كثير، فـذهبت إليه في اليوم الثالث وجدته نائمًا وبقيت أنظر إليه نظر الوحش إلى الفريسـة، فـأحس بوجودي ففتح عينيه ووجدني أنظر إليه بابتسـام المسـتعد للافتراس، وقد كشـرت له عن أنياب حادة، فاتسـعت عيناه وحملق بي وأراد الحركة لكن لم يقدر؛ فقلت له: لسـت ملك الموت، لكن سـأريك جهنم قبل ذلك، وبقيت أنظر إليـه واسـتمتعت قليلًا برؤيتـه يزداد غضـبـه ويود أن يتحرك أو يسـتغيث! لكن أردفتُ قائلًا: من سـيئ إلى أسـوأ إن شـاء الله، ومن بأسـاء إلى لأواء ومن ضـرر إلى ضـراء، وتركته وهو يتلوى في خيوطه وقد سقط من سرير الإنعاش وخرجت.

العودة إلى الأعالي

وأنا في بهو المستشفى صادفت العميد فجأة عند منعطف قريب من الباب الرئيس، وهو يقرأ بصوت مسموع كأنه يراجع آيات من كتاب الله :

والكاظمين الغيظ.

والعافين عن الناس .

والله يحب المحسنين .

ما الذي جاء به إلى تازة؟ وهل هو حقيقة أم تراءى لي خيال له، وسمعت صوته؟ لا شك أني رأيت العميد فهذا ليس اختراعًا من حواسي ولا وهمًا من أوهامي لذلك تسللت في حذر أن يراني، وكنت عازمًا على الرجوع لتنفيذ العملية، لم يبقَ لي إلا خطوات في مشواري.

كانت تلك الآيات تعترضني في طريقي، أحاول ألا أسمعها لكن هديرها كان أكبر من سمعي، بدأت أقلب وجهي حتى أتحاشاها فرأيتها منقوشة على كل جدار، وأصررت على ألا أسمع ولا أرى ولا أفهم ولا أعي، وقررت ألا يصحبني عقلي، وأن أنزع الرحمة من

أضــلعي، ثم ما الذي جاء بالعميد إلى هنا؟ تركته في بركان، هل هو حقًّا؟

وبعـد أن شــبعـت تجوالًا بـالحـارة وزُرت من زرت وواعـدت في المقهى من واعدت، حملت حقيبتي واتجهت إلى المسـتشـفى ولبسـت لباسًا خاصًّا بالمهمات الصعبة، بذلة سوداء وحذاء كلاسيكيًّا أسودَ وقميصًــا في لون الرصــاص وربطة عنق ونظارات تأســيًّا بجيمس بوند بطلي المفضـل، وقلت لنفسـي ضـع كل أحاسـيسـك في خزانة واتركها في بيت الجدة، واتجه راشدًا إلى غريمك، اليوم يوم القضاء!

الأجنحة الفضية

دخلت المستشفى واتجهت إلى الغرفة مباشرة وأردت الدخول عليه إذا بي أسمع صوتًا، بالداخل فتحت من الباب فتحة أنظر منها ورأيت امرأة إلى جانب السرير تبكي وهو في غيبوبة وطفلة صغيرة يبدو أنها بنتها تعانق أمها وتقول لها: لمَ تبكين؟ أبي نائم! توقفي عن البكاء سيوقظه بكاؤك!

بقيت مسمَّرًا بالباب، وفاجأتني ممرضة وهي تدفع الباب قائلة: هل أنت من أقاربه؟

-لا، ولكني أعرفه.

التفتت المرأة نحونا فدخلت لأعرف الحال خفت أن يكون قد مات؛ إذا بتلك المرأة تخاطبني في استعطاف:

-هل أنت صديقه؟ هل يمكن أن تساعده؟ يحتاج إلى دم؟ وليس لديه مال، سيموت إن بقي هكذا، المستشفى ليس فيه دم وحتى وإن وجد... ثم ألجمها البكاء عن إتمام استعطافها وغطت وجهها وهي تنتحب، فشعرت ببرودة في جسمي ولم أتحرك ولم أُجب حتى وضعت الطفلة يدها في يدي وهي تقول :

-عمُ، أبي لن يموت! ستساعده؟ ساعده أرجوك! أرجوك عم!

- لا! لا! لا تقلقي لن يموت! لن أتركه يموت .

لم تكن المسكينة تعرف قصدي ولا تعرف لمَ أنا حريص على بقائه، فاتجهت إلى الممرضة وقلت لها:

-أعطيه ما يلزم! وسأدفع الثمن! ثم أعطيت المال المتبقي من محفظة العميد للمرأة وكنت جعلته مناصفة بيني وبين الجدة، ثم قلت لها سأعود غدًا إن احتاج دمي أعطيته إياه؛ وكان المستشفى يقايض على الدم يعطى للمريض من مخزون الدم المتوفر إن لم يكن دم المتبرع صالحًا.

خرجت وأنا لا أدري ما فعلت! أينجو وإن نجا هل أغير خطتي؟ أم أتركه للقدر؟

قضيت ليلة بيضاء لم أكتحل بنوم! وفي الصباح أسرعت إلى المستشفى، وجدت المرأة في بهو الإنعاش وما إن رأتني الطفلة حتى أسرعت إلي وهي فرحة مبتهجة .

-عمُّ! عم! أبي شُفي! أبي شفي، نشكرك على مساعدتك! هو الآن بخير! لما أخبرته عنك لم يعرفك، ربما من الغيبوبة!

-لا عليك! ولا شكر على واجب .

خرج الطبيب والممرضة وأخبرانا بأن الدخول عليه مسموح من غير أن نوقظه أو نكثر الحديث معه، فأخذتني الطفلة بيدها تجرني لأراه، كانت براءتها أقوى من حقدي، وسعادتها بحياته أكثر من استعدادي وعدتي وأناملها الرطبة التي تتمسك بشدة لا تنازل فيها بيدي، فلم أملك إلا أن أستجيب لها واتبعتها كطفل لا يحب كسر خاطرها مرغمًا.

دخلنا عليه وهو مغمض العينين فارتمت بنته عليه وأمها تزجرها عنه حتى لا تؤذيه، ففتح عينيه ونظر إليها وابتسم ونظر إلى زوجته فبادرته بالقول:

-ها هو صديقك الذي حدثتك عنه.

أدار وجهه ببطء شديد نحوي ولما راني أغمض بصره هنيهة ثم فتحهما وقد امتلأتا بالدموع ثم نظر إلي مرة أخرى، ولم يقل شيئًا، فخرجت وأنا أقول لهم جميعًا: أترككم!

تبعتني الطفلة إلى الباب وعانقتني كأنها تشعر بامتنان كبير نحوي، ونظرت إلى المرأة فوجدت عندها أيضًا نوع شكر بالقول وبالحال، فاستحييت أني لم أقم بشيء يذكر سوى أني عفوت لأجل تلك الطفلة وعفوت لأَنّي قدرت على العفو، وقد كنت إلى آخر لحظة من لقائي به عازمًا على إدخاله الجحيم الذي أعددت له وكنت مستطيعًا لذلك.

خرجت من المستشفى وعادت إلي خلدي تلك الآيات :

والكاظمين الغيظ!

والعافين عن الناس !

والله يحب المحسنين !

كظمت وعفوت ورجوت أن أكون أحسنت.

المهم أن بعد سـهر تلك الليلة ازداد جرْس ذلك الكلام العلوي، ورأيتني أحلق مع العميد في سـماء عالية، ولأول مرة أحلم أني أطير بأجنحة فضية.

المحتويات

الإهداء 6
فرخ بين الجيوب 7
الفرخ المهاجر 10
من العش إلى لعشايش..... 14
عش جديد 26
أجواء التحليق..... 28
رفرفة جناح..... 42
زغب ثم ريش 49
محاولات في الطيران..... 53
تجربة التحليق في الفضاء..... 58
الطيران الحر 61
صيد ومصيدة..... 66
بداية التحليق العالي..... 76
التحليق الدائري..... 83
عودة النسر الجريح..... 84

أمام العش القديم..... 86
انقضاض خاطئ..... 95
العودة إلى الأعالي..... 98
الأجنحة الفضية..... 100
المحتويات..... 104

دار بسمة للنشر الإلكتروني

دار مغربية، رقمية، تأسست في 2017

دار بسمة للنشر الإلكتروني من أهدافها مساعدة الشباب المغاربة والعرب على نشر إبداعاتهم، وإيصال أصواتهم وتغريداتهم إلى العالم كله، كما تطمح لاكتساح عالم النشر الإلكتروني في كل الأقطار العربية..

كما أننا –في محاولة منّا لتغذية شريان الثقافة– نسترشد بالضمير الحي من أجل نشر المحتوى الثمين، حاملين على كواهلنا رسالة التنوير الحقيقي، ومدركين كل الإدراك لقيمة القلم النبيلة، لذلك كنا حريصين على نشر كل ما هو قيّم. في دار بسمة للنشر الإلكتروني نساند المؤلفين وندعمهم لإيصال إبداعاتهم لملايينَ من القراء، ونرشدهم إلى آليات فنية تعينهم على تحسين أساليب الكتابة والإبداع. وتقريبا لهذه الغاية تقوم الدار بتنظيم مسابقات متعدّدة، والإشراف عليها مجانا من أجل اكتشاف المواهب الشابة التي تستحق أن تُنشرَ أعمالُها بينَ القرأَةِ والمثقفين، وذلك تشجيعا لهم على الاستمرارية في الكتابة الإبداع.

محمد يعقوبي شاعر وقاص، من مواليد سنة 1973 بمدينة بركان (المغرب). حاصل على إجازة من كلية الآداب والعلوم الإنسانية بوجدة، شعبة الدراسات الإسلامية. له ديوان شعري قيد النشر الإلكتروني، وأعمال أدبية أخرى تنتظر موعد الخروج إلى القرّاء.

فرخ الجيوب والتحليق العالي

رحلة صادمة في دهاليز النفس والمدينة، تروي حكاية فتى نشّال احترف سرقة الجيوب... قبل أن تسرق منه الحياة براءته. من تازة إلى بركان، يطارد حلمه بين الجوع والذنب، والظلّ والنور، يسقي كل يوم يمر عليه شجرة الحقد والانتقام ويسقى معها العزم والإصرار على التنفيذ .
حكاية سقوطٍ وانبعاث، وسفرٍ من الوحل إلى جناح النسر

Bassmabook
0021277181493
darbassma1@gmail.com